المقدم والمؤخر في القرآن الكريم من خلال تفسير البغوي

جمعاً ودراسة

د. علي بن جريد بن هلال العنزي

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية- كلية التربية والآداب – جامعة الحدود الشمالية- المملكة العربية السعودية.

- من مواليد عام ١٣٩٢هـ بمدينة عرعر بالمملكة العربية السعودية.
- تخرج في كلية المعلمين بمدينة عرعر عام ١٤١٥هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى عام ١٤٢٤هـ بأطروحته :"**اختيارات ابن حزم في التفسير**" ، كما نال شهادة الدكتوراه منه عام ١٤٢٩هـ بأطروحته: "**أقوال الإمام ابن قتيبة في التفسير**".
- من أعماله المنشورة: "**المزيد في القرآن الكريم: جمعا ودراسة**"، "**هداية الحيران في ما قيل ليس له مخالف من القرآن**"، "**الاختيارات العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية في الناسخ والمنسوخ من الآيات القرآنية**"،"**المقدم والمؤخر في القرآن من خلال زاد المسير**" .
- البريد الشبكي: tabet5005@gmail.com

الملخص

عنوان البحث: المقدم والمؤخر في القرآن الكريم من خلال تفسير البغوي (جمعاً ودراسة).

شرط البحث: ما ذكره البغوي في الآية الواحدة من تقديم أو تأخير، سواءً ذكره مرجحاً له، أو حاكياً له عن غيره.

وعليه؛ فما كان في آيتين، -أي: ما ذكر مقدماً -أو مؤخراً- على جزء من آية أخرى- فليس من شرطي في البحث.

وشرط آخر، هو أنَّ ما ذكره البغوي من موضع المقدم والمؤخر، وقد وافقه عليه ابن الجوزي، فلا يبحث؛ لكونه بُحِثَ ودُرِسَ في بحث سابق خاص بابن الجوزي، ألا وهو: (المقدم والمؤخر في القرآن من خلال زاد المسير).

في البحث دراسة لما قيل في الآيات القرآنية من تقديم وتأخير، وبيان لحجته.

وفيه أيضاً ذكر للأقوال الأخرى في الآيات الكريمات.

اعتنيت في البحث بدراسة الأقوال وعرضها على قواعد المفسرين.

في البحث عناية بالترجيح بين أقوال المفسرين، وبيان لسبب الترجيح، ومأخذ القول الراجح.

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلمنا الحكمة والقرآن، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، بعثه الله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وسلم تسليماً كثيراً مزيداً إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فلا يخفى على طلاب العلم -سيما الدارسون في تخصص الدراسات القرآنية- أهمية موضوع المقدم والمؤخر في القرآن الكريم؛ إذ يترتب عليه فهم الآيات القرآنية، وتبين معانيها، ثم ما ينبني عليه من حكم وأسرار من التقديم والتأخير مما ذكره المفسرون.

وهذا في نوعٍ واحدٍ منه؛ إذ من المعلوم أن المقدم والمؤخر على نوعين اثنين، هما:

الأول: ما أشكل معناه بحسب الظاهر منه، فلما عرف أنه من باب المقدم والمؤخر زال الإشكال، وذهب الالتباس، وهذا من باب التفسير -كما ترى-.

أما النوع الثاني: فهو تقدم لفظة على أخرى في موضع من القرآن الكريم، ثم تأتي متأخرة عنها في موضع آخر، كتقديم الجن على الإنس، ثم تقديم الإنس على الجن، وهكذا، فهذا بحث بلاغي، يبحث فيه المفسر عن السبب الذي لأجله تقدمت هذه اللفظة على اللفظة الأخرى، بينما تأخرت عنها في موضع آخر.

والفرق بين النوعين: أنَّ الأول يقال فيه: قدمت اللفظة أو الجملة وحقها التأخير، ولا يقال مثل هذا في النوع الثاني.

فهذا فرق، وفرق آخر: أنَّ الكلام في النوع الأول كلام في صميم التفسير ولبه، في حين أن النوع الثاني بلاغي بحت.

وهذا لا يزهد في النوع الثاني، إنما هو من باب بيان أهمية كل نوع، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولمَّا لم أر مؤلفات خاصة في النوع الأول-حسب بحثي واطلاعي-؛ أحببت الكتابة والتأليف فيه، فكان-بحمد الله- هذا البحث: وأسميته: (**المقدم والمؤخر في القرآن الكريم من خلال تفسير البغوي: جمعاً ودراسة**).

وقد لاحظت أثناء مراجعتي لتفسير الإمام البغوي أنَّ الإمام له عناية واضحة في هذا النوع من أنواع علوم القرآن الكريم، فهو يكثر من نقله عند الحديث على اختلاف أنظار المفسرين في فهم الآيات القرآنية، بحيث يمكن استخراج مادة علمية صالحة للبحث؛ فاستعنت بالله ﷻ في جمع كلِّ ما ذكر البغوي أنه من قبيل المقدم والمؤخر، سواءً ذكره متبنياً له، أو ذكره كقولٍ قيل في الآية الكريمة.

لكن سيكون شرط البحث: ما ذكر في الآية الواحدة أنه من قبيل المقدم والمؤخر، أما ما ذكر في آيتين أو أكثر، فهذا خارج عن موضوع البحث.

وشرط آخر، وهو: أنَّ ما ذكره الإمام البغوي، وهو موجود في كتاب زاد المسير، فهذا لا أتناوله بالبحث؛ اكتفاء ببحثه عند ابن الجوزي، فقد بحث على وجه الاستقلال كما في مجلة تبيان للدراسات القرآنية، العدد الثاني عشر.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون على هيئة مواضع، كان مجموعها خمسةً وعشرين موضعاً، مسبوقة بمقدمة بينت فيها أهمية الموضوع ونوعيه وشرطي في البحث، والمنهج الذي سرت عليه فيه، وهذه المواضع هي:

الموضع الأول: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٥].

الموضع الثاني: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٦٦].

الموضع الثالث: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾ الآية:[البقرة:٨٥].

الموضع الرابع: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة:١٣٠].

الموضع الخامس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦].

الموضع السادس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩].

الموضع السابع:التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٧٣].

الموضع الثامن: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ ﴾ [النساء:١٤٧].

الموضع التاسع: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾[المائدة:٦٩].

الموضع العاشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى :﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة:١١٨].

الموضع الحادي عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[الأعراف:١١].

الموضع الثاني عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾[الأعراف:٧٩].

الموضع الثالث عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[الأعراف:١٦٠].

الموضع الرابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨].

الموضع الخامس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧].

الموضع السادس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[الكهف:٣٨].

الموضع السابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣].

الموضع الثامن عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٣].

الموضع التاسع عشر: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الأنبياء:٩٧].

الموضع العشرون: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

الموضع الحادي والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٧].

الموضع الثاني والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[النمل:٢٨].

الموضع الثالث والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨].

الموضع الرابع والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم:٨].

الموضع الخامس والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢].

وقد سرت في بحثي على النهج الآتي:

أولاً: أذكر الآية التي ذكر فيها التقديم والتأخير.

ثانياً: أنقل كلام البغوي المتعلق بهذه المسألة كاملاً ومعزواً.

ثالثاً : أحدد موضع التقديم والتأخير في الآية القرآنية؛ حتى يكون القارئ على بينة من موضع الدراسة.

رابعاً: أقوم بدراسة الآية الكريمة من جهة التقديم والتأخير فحسب.

خامساً: كان من عنايتي في البحث نسبة القول إلى قائله حسب الاستطاعة.

سادساً: أناقش القول بالتقديم والتأخير، وأذكر الأقوال الأخرى لأهل العلم.

سابعا: في البحث يظهر -إن شاء الله تعالى- بيان حال الأقوال المنقولة في الآيات الكريمات، وبيان ضعفها وقوتها، استناداً للقواعد العلمية المعلومة عند أهل العلم؛ ليستفيد القارئ -إن شاء الله- تطبيق القواعد، وممارسة العلم.

ثامناً :أخرج الأحاديث والآثار التي تنقل في صلب البحث.

تاسعاً: أترجم للأعلام الذين يحتاجون إلى ترجمة ممن يقل ذكرهم في الأوساط العلمية، أما المعروفون فلا أترجم لهم؛ حتى لا يطول البحث.

عاشراً: أختم البحث بخاتمة أضع فيها-إن شاء الله تعالى- أهم نتائج البحث.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين.

وهذا أوان الشروع في المقصود.

الموضع الأول: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة:٦٥].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ أمر تحويل وتكوين ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مبعدين مطرودين، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: كونوا خاسئين قردة، ولذلك لم يقل: خاسئات»[(١)].

الدراسة: ذكر بعض أهل العلم هذا القول كما ذكره البغوي على سبيل التمريض[(٢)]، ولم يعزوه لقائله[(٣)].

ووجه هذا القول: أن خاسئين جمع مذكر لا يناسب قردة، فحسن أن يكون عائدا على أصحاب السبت، فيكون نظم الكلام-على هذا-: كونوا خاسئين قردة.

لكن هذا القول لا يسلم لأربابه؛ لأنه خلاف الأصل، فالأصل في الكلام عدم التقديم والتأخير، إلا أن يدل دليل على التقديم والتأخير.

ولهذا وغيره؛ لم يذكر أكثر المفسرين هذا القول ولم ينقلوه، بل إنَّ الذين لهم عناية في نقل الخلاف كابن الجوزي لم يحكوه[(٤)].

والحجة المذكورة غير صحيحة؛ لوجهين:

- أن قردة جمع مذكر، مثل فيل وفيلة، فأنت تقول لمجموعهم: قرود، وقردة، وأقراد[(٥)].

---

(١) معالم التنزيل(١/ ١٠٥).

(٢) انظر: تفسير السمعاني (١/ ٩٠)، لباب التأويل(١/ ٦٩)، فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ١٩١).

(٣) ولم أر من قال به، بل لم أره في غير هذه المصادر.

(٤) زاد المسير (١/ ٩٥).

(٥) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٣٠٧)، المخصص لابن سيده (٢/ ٢٨٩)، البحر المحيط (١/ ٤٠٣).

قال الفيومي[(١)]:«ويجمع الذكر على (قُرُود) و (أَقْرَاد) و(قِرَدَةٍ)، وجمع الأنثى (قِرَدٌ)»[(٢)].

- يقال: (خَاسِئِينَ) خبر ثان، ويصح أن تكون صفة، وقيل: كلاهما خبر وأنهما نزلا منزلة الكلمة الواحدة[(٣)].

وعلى هذه الأقاويل؛ فلا تقديم في الآية ولا تأخير، فالصحيح أنَّ الآية على نسقها، وهذا مذهب جمهور المفسرين.

قال الطبري: «فكذلك معنى قوله:﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾ أي: مبعدين من الخير أذلاء صغراء»[(٤)].

الموضع الثاني: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٦٦].

قال الإمام البغوي رحمه الله :«وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: فَجَعَلْنَاهَا وَمَا خَلْفَهَا، أَيْ مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَجَزَاءً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا أَيْ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ بِاعْتِدَائِهِمْ فِي السَّبْتِ»[(٥)].

---

(١) أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، نشأ بالفيوم (بمصر)، ورحل إلى حماة، كان فاضلاً عارفاً باللغة والفقه، صنف في ذلك كتاباً سماه (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) قال ابن حجر: «وهو كثير الفائدة حسن الإيراد... وكأنه عاش إلى بعد سنة(٧٧٠هـ) ».
انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ٣٧٢)، الأعلام للزركلي (١/ ٢٢٤).

(٢) المصباح المنير (٢/ ٤٩٦)، وانظر: روح المعاني (١/ ٢٨٣).

(٣) قال الشيخ محي الدين درويش في إعراب القرآن وبيانه (١/ ١١٩) عن هذا القول: «وهو قول جيد».
وانظر: البحر المحيط (١/ ٤٠٩)، فتح القدير(١/ ٩٦).

(٤) جامع البيان (٢/ ١٧٤)، وانظر: المحرر الوجيز (١/ ١٦٠)، التفسير الكبير (٣/ ١٠٤)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٥٠).

(٥) معالم التنزيل(١/ ١٠٥).

الدراسة: موضع التقديم في الآية الكريمة: هو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾، حيث جاء في الآية متأخراً، وحقه التقديم؛ ليكون نسق الآية الكريمة: فجعلنا العقوبة وما خلفها من العذاب الأخروي نكالا وعقابا لما سلف من الخطيئة.

والمعنى بَيِّنٌ على هذا القول.

وقبل أن نبدأ بمناقشة هذا القول، لعل من المهم أن نعرض للضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ على ماذا يعود؟ فهذا -لاشك- أنه مؤثر في دراسة القول المذكور أعلاه.

فاعلم -وفقنا الله وإياك لمرضاته- أنَّ الضمير إما أن يعود إلى القرية، والمعنى: جعلنا القرية نكالاً لما بين يديها وما خلفها، أي من القرى.

وقريب منه قول من قال: إنه عائد على الأمة الممسوخة.

أو يكون الضمير عائداً على المسخة، أي ما بين يدي المسخة وما خلفها من الذنوب والمعاصي.

وإما يعود إلى القردة[1]، وهذه الأقوال متقاربة جداً، فلا تنافي بينها، ولذا جعل ابن عطية الآية تحتمل هذه الأقوال، قال رحمه الله: «والضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يحتمل العود على المسخة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية»[2].

بقينا في المسألة التي من أجلها سيق الكلام، فيرى أصحاب القول -كما أسلفنا- أن الآية فيها تقديم وتأخير، وهم على هذا القول يرون أن الضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على العقوبة.

---

(١) انظر هذه الأقوال في: معالم التنزيل(١/ ٨١)، أنوار التنزيل(١/ ٣٣٨)، لباب التأويل(١/ ٦٩)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٥٠)، إرشاد العقل السليم (١/ ١١٠)، فتح القدير (١/ ٩٦)، أقوال الإمام ابن قتيبة في التفسير (١/ ١٢١).

(٢) المحرر الوجيز(١/ ٢٤٤).

ولننظر ماذا يلزم على هذا القول؟

يلزم منه:

- تباين عود الضمير في كلمتين متتاليتين، هما يديها وخلفها، فالأولى منهما: الضمير عائد على الذنوب، وفي خلفها عائد على العقوبة.

وهذا فيه نظر؛ لمخالفته الأصل، قال السيوطي: «الأصل توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتيت»[(١)].

- التقديم والتأخير في نسق الكلام.

ومعلوم أن الأصل عدمه.

إذا تقرر هذا؛ فاعلم أن جمعاً من أهل العلم، بل هو مذهب الأكثر منهم، لم يروا التقديم والتأخير في الآية الكريمة، ورأوا أنَّ الآية على نسقها، لكنهم اختلفوا في مرجع الضمير في الكلمتين: يديها وخلفها، وكان خلافهم على قولين اثنين، هما:

القول الأول: أن المراد: ما بين يديها وما خلفها من القرى.

والمراد بالقرى التي بين يديها: القرى التي حضرت تلك القرية المعذبة، وشاهدت، أو سمعت بخبرها وشأنها، وليس المراد بها تلك القرى السابقة؛ لأن السابق لا ينتفع بخبر أتى بعده.

وهذا هو اختيار الإمام ابن قتيبة[(٢)]، وسبقه إليه ابن عباس[(٣)].

---

(١) الإتقان (٤/ ١٢٧٢)، وانظر: البرهان للزركشي(٤/ ٣٥)، قواعد في التفسير(١/ ٤١٤).

(٢) انظر: أقوال الإمام ابن قتيبة في التفسير (١/ ١٢١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١/ ١٣٣).

وإليه ذهب كثير من أهل العلم بالتأويل، منهم: ابن عزيز والسمرقندي وابن أبي زمنين والواحدي والنحاس والسمعاني والزمخشري وابن كثير والنسفي والسعدي[1].

ويشكل على هذا القول، أنهم فسروا ما خلفها، أي: القرى، بالقرى المجاورة، ولا يقال في حق القرى المجاورة: وما خلفها، بل يقال: وما حولها، كما في قول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [الأحقاف:٢٧].

القول الثاني: لما بين يديها وما خلفها من الذنوب، أي: وما عملوا بعدها.

ويكون الضمير عائداً على المسخة، أي ما بين يدي المسخة وما خلفها من الذنوب.

وهو قول ابن عباس[2] ومجاهد[3] وقتادة[4] وأبي العالية[5].

واختاره البخاري والطبري وابن جزي الكلبي[6].

قال الإمام ابن عطية: «هذا قول جيد»[7].

والراجح -والعلم عند الله تعالى- أنَّ الآية على نسقها وترتيبها، ثم القولان المذكوران متقاربان في المعنى، وأولاهما الثاني، أي: لما بين يديها من الذنوب وما خلفها كذلك.

---

(١) انظر: غريب القرآن لابن عزيز(ص٤٥٨)، بحر العلوم (١/ ٨٨)، تفسير ابن أبي زمنين (١/ ١٤٨)، الوجيز للواحدي(١/ ١١١)، تفسير السمعاني(١/ ٩٠)،الكشاف(١/ ١٧٦)، مدارك التنزيل(١/ ٦٨)، تفسير ابن كثير (١/ ١٠٨)، تفسير السعدي (ص٥٤).

(٢) أخرجه الطبري(٢/ ٧٠).

(٣) أخرجه الطبري(٢/ ٧١) وابن أبي حاتم(١/ ١٣٤)، وانظر: تفسير مجاهد(١/ ٧٦).

(٤) أخرجه الصنعاني (١/ ٤٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١/ ١٣٤).

(٦) انظر: جامع البيان(١/ ٧٢)، التسهيل لعلوم التنزيل(١/ ٥٠)، عمدة القاري(١٨/ ٨٤).

(٧) المحرر الوجيز(١/ ٢٤٤).

فإن قيل: يشكل على هذا القول: أنه كيف تكون العقوبة نكالاً لما خلفها من ذنوبهم، وهل لهم ذنوب بعد أن أهلكوا ؟!!.

فالجواب[(١)]: أن ما خلفها لا يقصر على ذنوبهم، بل يعم ذنوب غيرهم ممن جاء بعدهم، فإنَّ من أعظم مقاصد القصص القرآني، تحذير الناس من معاصي الله تعالى، وترهيب الخلق من ركوب مساخط الله تعالى، فالقصص من زواجر القرآن ولا شك.

لكن الإمام الطبري رحمه الله أدرك هذا الاعتراض، فذهب بـ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ إلى معنى غير ما ذكرناه مع أنه المتبادر من هذا القول، فقال: «فتأويل الكلام: فجعلنا عقوبتنا لهم عقوبة لما بين يديها من ذنوبهم السالفة منهم، ولما خلف عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم أن يعمل بها عامل، فيمسخوا مثل ما مسخوا، وأن يحل بهم مثل الذي حل بهم»[(٢)].

الموضع الثالث: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة:٨٥].

قال الإمام البغوي:« وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ وَنَظْمُهَا: وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا منكم من دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ، فَكَأَنَّ اللهَّ تَعَالَى أَخَذَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةَ عُهُودٍ: تَرْكَ الْقِتَالِ،

(١) انظر: جامع البيان (١/ ٧٢).

(٢) انظر: جامع البيان (١/ ٧٢)، فتح الباري(٨/ ١٦٢)، عمدة القاري(١٨/ ٨٤).

وَتَرْكَ الْإِخْرَاجِ، وَتَرْكَ الْمُظَاهَرَةِ عَلَيْهِمْ مَعَ أَعْدَائِهِمْ، وَفِدَاءَ أَسْرَاهُمْ، فَأَعْرَضُوا عَنِ الْكُلِّ إِلَّا الْفِدَاءَ»[(١)] .

الدراسة: لم يكن الإمام البغوي في هذا الموضع حاكياً للقول بل متبنياً له، فيرى رحمه الله أنَّ الآية فيها تقديم وتأخير، والمقدم والمؤخر في الآية الكريمة، هو: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أخر في النظم، وحقه في المعنى التقديم، وموطنها بعد قوله سبحانه : ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

وقد سبقه السمرقنديُ والواحديُ والسمعانيُ إليه ، وذكره أبو السعود [(٢)].

لكن، لماذا أخَّر ذكر الحكم (تحريم الإخراج) عن الفعل(الإخراج)؟ ولماذا كرر تحريم الإخراج مع أنه ذكر أولاً؟.

أما سر تأخير بيان الحكم عن الفعل «فلأن نظم أفاعيلهم المتناقضة في سمط واحد من الذكر أدخل في إظهار بطلانها» [(٣)].

وأما ذكر الإخراج مرة ثانية مع أنه ذكر أولاً؛ فلأنه «مظنة للمساهلة في أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل، ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معاً، وذلك مختص بصورة الإخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشيء من دية أو قصاص هو السر في تخصيص التظاهر به فيما سبق»[(٤)].

وبعد البحث في كتب المفسرين لم أر من نص على التقديم والتأخير سوى من ذكرت، ولا يظهر أنهم يخالفون في التقديم والتأخير؛ لوضوح المعنى بناء على القول

---

(١) معالم التنزيل(١/ ١١٨).

(٢) انظر: بحر العلوم(١/ ٩٧)، البسيط للواحدي(٣/ ١٢٥)، الوسيط للواحدي (١/ ١٦٩)، تفسير السمعاني (١/ ١٠٤)، إرشاد العقل السليم(١/ ١٢٥).

(٣) إرشاد العقل السليم(١/ ١٢٥).

(٤) إرشاد العقل السليم(١/ ١٢٥)، وأبدى الألوسي في روح المعاني(١/ ٣٠٨)وجهاً آخر، وهو: أن الإخراج أشد من القتل، فلذا نبه عليه وأكد بتكراره مرة أخرى، وبيان كونه أعظم في كلام أبي حيان في البحر المحيط(١/ ٤٦٠)، ولا مانع من الحمل على جميع ما ذكر.

به؛ فتحريم الإخراج لاشك أنه يأتي عقب الإخراج؛ لكن فصل بينهما بفاصل للعلة المذكورة ولغيرها-مما لم نطلع عليه من أسرار كلام ربنا ﷻ-.

فهذا ما يظهر، والعلم عنده ﷻ.

الموضع الرابع: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠].

قال البغوي:«وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ[(١)]: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »[(٢)].

الدراسة: يرى الحسين بن الفضل-كما نقل عنه الإمام البغوي- أن الآية الكريمة على التقديم والتأخير، وموطنه، كما هو بين في النقل:﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ متأخر، وحقه التقديم، أي : ولقد اصطفيناه في الدنيا والآخرة، وإنه لمن الصالحين.

هكذا يرى الحسين بن الفضل.

وسبب هذا القول: أنه رأى أنَّ الألف واللام في﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ موصولة، بمعنى الذي، ولا يمكن أن تتقدم الصلة موصولها، وعليه؛ فلا يمكن أن تكون ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ صلة ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وإنما هي متعلقة بـ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾[(٣)].

---

(١) الحسين بن الفضل بن عمير أبو علي البجلي، العلامة، المفسر، الإمام، اللغوي، المحدث، أبو علي البجلي الكوفي، ثم النيسابوري، عالم عصره فِي معاني القُرْآن، قال مضارب بن إبراهيم: كَانَ علم الحُسَيْن بن الفضل بالمعاني إلهامًا من الله تعالى، فإنه كانَ تجاوز حد التعليم، وكان ذا عبادة كثيرة. قال ابن حجر في اللسان (٣/ ٢٠١) منتقداً الذهبي إيراده لهذا العالم في كتاب الميزان-وهو كتاب يختص بالمجروحين-، قال: « وما كان لذكر هذا في هذا الكتاب معنى، فإنه من كبار أهل العلم والفضل ».

ولد قبل الثمانين ومائة، وتوفي في سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وهو ابْن مائَة وأربع سنين.

انظر ترجمته في تاريخ بغداد (٥/ ١٧٥)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤١٤)، تاريخ الإسلام (٦/ ٧٤٢)، اللسان (٣/ ٢٠١).

(٢) معالم التنزيل(١/ ١٥٣)، وانظر: البسيط للواحدي (٣/ ٣٣٦)، الجامع لأحكام القرآن(٢/ ٤٠٦)، الدر المصون (٢/ ١٢٢).

(٣) انظر: الكشف والبيان للثعلبي(١/ ٢٧٩)، المحرر الوجيز(١/ ٣٥٤)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٤٠٦)، الدر المصون (٢/ ١٢٢).

ولم يرتض هذا القول غير واحد من العلماء، منهم: أبو حيان حيث قال: «وهذا الذي ذهب إليه خطأ ينزه عنه كتاب الله»(١).

وأيضاً: السمين الحلبي، حيث قال: «وهذا ينبغي ألا يجوز مثله في القرآن؛ لنبوِّ السمع عنه»(٢).

ودعوى التقديم والتأخير في الكلام مخالفة للأصل المعروف أن الكلام على نسقه ونظمه.

وأيضاً: أن المعنى المتبادر من الآية والسابق إلى الفهم: أن ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ متعلقة بـ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ولهذا جاء التأكيد فيها أكثر من سابقتها؛ وذلك لعظم الآخرة، ولأن جزاء الآخرة لا يرى.

ثم إن هذا الآية الكريمة جاء على نظمها ومعناها آيتان، يدلان على أن الصلاح في الآخرة وليس في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أنَّ الآية على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير، منهم: ابن جرير الطبري والزجاج وابن أبي زمنين والزمخشري والخازن وأبو السعود والشوكاني والسعدي وابن عثيمين، وقدمه الألوسي(٣).

---

(١) البحر المحيط(١/ ٥٦٦).

(٢) الدر المصون (٢/ ١٢٢)، وانظر: اللباب (٢/ ٤٩٩).

(٣) انظر: جامع البيان(٢/ ٥٨٠)، معاني القرآن للزجاج(١/ ٢١١)، تفسير ابن أبي زمنين(١/ ١٧٩)، الكشاف (١/ ٣٢٨)، لباب التأويل(١/ ٨٣)، إرشاد العقل السليم(١/ ١٦٢)، فتح القدير (١/ ١٤٤)، روح المعاني (١/ ٣٨٨)، تفسير المنار (١/ ٣٩٠)، تفسير السعدي (ص: ٦٦)، تفسير سورة البقرة لابن عثيمين (٢/ ٧٠).

ثم اختلفوا في توجيه الآية على الأقوال الآتية[١]:

- أنَّ الألف واللام للتعريف، وليست موصولة، فيستقيم الكلام.

وهذا المعنى أوضحها، ولا يلزم منه حذف ولا تقدير، وأيضاً: لا تقديم ولا تأخير.

- أنَّ ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾متعلق بمحذوف يبينه ما بعده، أي: وإنه لصالح في الآخرة من الصالحين.

وقد اختاره مكي وابن عطية وأبو حيان[٢].

وهذا الوجه ينبو السمع عنه، وفيه دعوى حذف، والأصل عدمه.

- أنَّ ﴿فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ متعلقة بما بعدها، والألف واللام في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ موصولة ، لكن يغتفر في شبه الجملة ما لا يغتفر في غيرها.

- أنَّ الكلام على حذف المضاف، أي: وإنه في عمل الآخرة لمن الصالحين.

وما ذهب إليه أكثر المفسرين من كون الآية على نسقها هو الراجح في معنى الآية الكريمة، وأن الألف واللام للتعريف، والله تعالى أعلم.

الموضع الخامس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦].

قال الإمام البغوي: «قَوْلُه تَعَالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ذَكَرَهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ مَا كَانُوا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحِسَابِ، فَكَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى فَضْلِ شَرْحٍ وَزِيَادَةِ بَيَانٍ.

(١) انظر: الهداية (١/ ٤٥٤)، المحرر الوجيز(١/ ٣٥٤)، الجامع لأحكام القرآن(٢/ ٤٠٦)، البحر المحيط (١/ ٥٦٦)، الدر المصون(٢/ ١٢٢)، اللباب(٢/ ٤٩٩)، روح المعاني(١/ ٣٨٨).

(٢) انظر: الهداية (١/ ٤٥٤)، المحرر الوجيز(١/ ٣٥٤)، البحر المحيط(١/ ٥٦٦).

وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، يَعْنِي: فَصِيَامُ عَشَرَةِ أَيَّامٍ: ثَلَاثَةٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، فَهِيَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ »[1].

الدراسة: هذا القول الذي قيل في الآية الكريمة لعل سببه هو: ما الفائدة من قول: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ومعلوم أنها عشرة، ثم لماذا قال:﴿كَامِلَةٌ﴾، وهل هناك عشرة ناقصة؟!!.

وقد شنع بعض الملاحدة على مثل هذا التعبير القرآني؛ لأجل ما ذكر[2]، فلعل من قال بهذا القول أراد دفع مثل هذا التشنيع، فقدمت العشرة الكاملة، ثم جاء التفصيل بعد ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجعتم، فلا إشكال حينئذٍ.

ولم أر هذا القول عند غير البغوي، فهو من مفاريده ﷺ ،كما أنَّه لم يعزه لقائل، بل حكاه ممرضاً ومضعفاً له.

وحسناً فعل، فما من داع لمثل هذا، والأجوبة عن الاعتراض المذكور كثيرة، وهي -بحمد الله- وافية بالغرض، ثم الأصل عدم التقديم والتأخير.

وقد ذكر أهل العلم -بياناً لهذا، وإيضاحاً لفوائده، ودفعاً لما يستشكل- وجوهاً عدة، فمنها[3]:

أولاً: أن الواو في قوله: ﴿وَسَبْعَةٍإِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦] ليست نصاً قاطعاً في الجمع، بل قد تكون بمعنى (أو) كما في قوله :﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[النساء:٣]، وكما في قولهم : جالس الحسن وابن سيرين، أي: جالس هذا أو هذا.

---

(١) معالم التنزيل(١/ ٢٢٤).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٥/ ١٣٣).

(٣) انظرها في : الكشف والبيان (٢/ ١٠٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ٦٥٥)، الكشاف (١/ ٢٦٩) زاد المسير (١/ ٢٠٧)، مفاتيح الغيب (٥/ ١٣٣)، الجامع لأحكام القرآن(٣/ ٣١٦)، أنوار التنزيل (١/ ٤٨١)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٧٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٩)، اللباب في علوم الكتاب (٣/ ٣٨٣)، إرشاد العقل السليم(١/ ٢٠٧)، فتح القدير (١/ ١٩٧)، روح المعاني (٢/ ٨٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (١/ ٣٩٩).

فقد يفهم من قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أن الأمر على التخيير، إما يصوم ثلاثة أيام في الحج، أو سبعة إذا رجع، لاسيما والله جل ذكره قد «ذكر عددين في حالتين مختلفتين، وجعل أقل العددين لأشق الحالتين، وأكثرهما لأخفهما، فلا جرم طرأ توهم أن الله أوجب صوم ثلاثة أيام فقط، وأن السبعة رخصة لمن أراد التخيير، فبين الله ما يدفع هذا التوهم، بل الإشارة إلى أن مراد الله تعالى إيجاب صوم عشرة أيام، وإنما تفريقها رخصة ورحمة منه سبحانه، فحصلت فائدة التنبيه على الرحمة الإلهية»[(١)].

فذكر: (عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) إزالة لهذا الوهم.

وقد قال النحاس عن هذا الوجه: إنه أحسن ما قيل[(٢)].

واختاره الزجاج[(٣)].

ثانيها : أن قوله (عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) على التوكيد للعدد، أي أنها عشرة فلا ينقص منها، ثم أكد العدد بكونه كاملاً، وهذا توكيد آخر.

وهذا، كقوله جل وعلا: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[الأحزاب:٤].

قال الزمخشري: «وأيضاً: ففائدة الفذلكة في كل حساب[(٤)] أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً؛ ليحاط به من جهتين، فيتأكد العلم، وفي أمثال العرب: علمان خير من علم»[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٢٢٩).

(٢) انظر: معاني القرآن للنحاس (١/ ١٢٦).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٢٦٩).

(٤) أي جمع الأعداد وحسابها.

(٥) الكشاف (١/ ٢٦٩)، وهذا الوجه ذكر أغلب بل جميع المفسرين، ولم يرتض ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص: ١٧٠) سواه.

ومن هذا الوجه المذكور -التوكيد على أنها عشرة- قول بعضهم: «هذا الخطاب مع العرب، ولم يكونوا أهل حساب، فبين الله تعالى ذلك بياناً قاطعاً للشك والريب»[(١)].

وهكذا قول بعضهم[(٢)]:إن عدد السبعة مستعمل لدى العرب للكثرة في الآحاد، كما يستعملون عدد السبعين؛ لغاية الكثرة، فجاء ذكر العدد إبطالاً لهذا الفهم الذي قد يطرأ.

وكذا قول من قال[(٣)]: هذا الكلام يزيل الإبهام المتولد من تصحيف الخط، وذلك؛ لأن سبعة وتسعة متشابهتان في الخط، فإذا قال بعده: (عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) زال هذا الاشتباه.

على بعدٍ في هذا الأخير.

فهذه الأقوال تشترك في أن سبب ذكر العشرة التأكيد على إرادة العشرة حقيقة.

وأما وصفه ﷻ للعشرة بالكمال، فوجهه:

- التنبيه على كمال البدل[(٤)]، وأنه -البدل وهو الصوم- لا ينقص في الثواب والأجر عن الأصل-وهو نحر الهدي-.

قال الرازي: «ثم اعلم أنَّ قوله : (كَامِلَةٌ) يحتمل بيان الكمال من ثلاثة أوجهٍ:

أحدها : أنها كاملة في البدل عن الهدي قائمة مقامه.

وثانيها : أنها كاملة في أن ثواب صاحبه كامل مثل ثواب من يأتي بالهدي من القادرين عليه. وثالثها : أنها كاملة في أن حج المتمتع إذا أتى بهذا الصيام يكون كاملاً ، مثل حج من لم يأت بهذا التمتع[(٥)].

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره(٥/ ١٣٤).

(٢) انظر: أنوار التنزيل (١/ ٤٨١)، البحر المحيط (٢/ ٤٦)، إرشاد العقل السليم(١/ ٢٠٧)، روح المعاني (٢/ ٨٣)، تفسير المنار (٢/ ١٧٩).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٥/ ١٣٥)، اللباب في علوم الكتاب (٣/ ٣٨٥).

(٤) واختار هذا الوجه الخازن في تفسيره(١/ ١٧٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٥/ ١٣٥)، وانظر: اللباب في علوم الكتاب (٣/ ٣٨٥).

وأضاف ابن عرفة وجهاً آخر لبيان الكمال، فقال: «وعادتهم يجيبون بأنَّ القاعدة أنَّ الصوم المتتابع أعظم ثوابا من المفرّق، فقد يتوهّم بتفريقها أن ثوابها أقل من ثوابها لو كانت مجموعة، فأشار بقوله (عَشَرَةٌ) إلى أن ثوابها على هذه الصفة أعْظَمُ من ثوابها لو كانت مجموعة فرعاً عن أن يكون مثله، ولذلك قال: (كَامِلَةٌ)[١].

- كما يفيد الإتيان بهذه الأيام كاملة، فلا ينقص منها، فكأن ربنا قال: ائتوا بها عشرة كاملة، فلا تنقصوا منها شيئاً.

ويوضح هذا: أن العموم سرى لكثير من النصوص الشرعية، فقد يرد عند البعض ما يفهم منه تخصيص هذا العدد بحال دون حال، فلما جاء وصف الكمال، دل على انتفاء مثل هذه الاحتمالات، وأصبح الأمر بينا، فلا بد من الإتيان بعشرة أيام كاملة.

واختار هذا الوجه الإمام ابن جرير الطبري[٢].

قال الطاهر ابن عاشور: «وأما قوله : (كَامِلَةٌ) فيفيد التحريض على الإتيان بصيام الأيام كلها لا ينقص منها شيء ، مع التنويه بذلك الصوم، وأنه طريق كمال لصائمه، فالكمال مستعمل في حقيقته ومجازه»[٣].

وهذه الوجوه كلها حسن جائز، وإن كان بعضها أحسن من بعض، وأولاها- والعلم عنده ﷻ- قول من قال: إن المراد التوكيد على كونها عشرة، وأنها كاملة فلا ينقص منها.

الموضع السادس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ

(١) تفسير ابن عرفة المالكى (٢/ ٥٧٠)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٤٥).

(٢) انظر: جامع البيان(٣/ ٤٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٢٢٩).

كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

قال الإمام البغوي: «وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ: وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَانْظُرْ إِلَى عِظَامِكَ كَيْفَ نُنْشِزُهَا، وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيرُهُمَا: وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ»(١).

الدراسة :يرى الإمام البغوي رحمه الله أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وموطن هذا التقديم والتأخير : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، فقدم قوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ على قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ وحقه التأخير، ونسق الآية: وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ.

ووجه هذا القول-والله أعلم-:

أن هاتين الجملتين مسوقتان بالنظر وطلب التأمل، فيحسن كونهما متتاليتين، ولا يفصل بينهما بفاصل، بل وقبلهما جملة مسوقة بطلب النظر، وهي قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ فتكون الجمل الثلاث المسوقة بالنظر متتابعة، ثم يأتي التعليل بعدها.

وإلى هذا ذهب الخازن(٢).

ورأى آخرون من أهل العلم أن محل التقديم والتأخير مغاير لما ذكره البغوي رحمه الله، وأن نسقها: وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه، ولنجعلك آية للناس، وانظر إلى حمارك .

(١) معالم التنزيل(١/ ٣٢١).

(٢) لباب التأويل(١/ ٢٧٩).

وقد عزا الثعلبي[١] هذا القول إلى أكثر العلماء[٢].

ولم يتبين لي وجهه.

والقول بالتقديم والتأخير خلاف الأصل، فلا يصار إليه، إلا إذا دل عليه الدليل.

وكم من مفسر لم يتعرض لقضية التقديم والتأخير، وهذا يدل على أنه لا يراها، فمنهم:مكي والسمرقندي والواحدي والزمخشري وابن الجوزي والرازي والبيضاوي وابن جزي وأبو السعود والشوكاني والألوسي وصديق حسن خان والسعدي[٣].

بل صرح أبو حيان بردَّ هذا القول، فقال: «وليس في الكلام تقديم وتأخير كما زعم بعضهم ، وأن الأنظار منسوق بعضها على بعض ، وأن قوله:﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾الخ، وهو مقدّم في اللفظ، مؤخر في الرتبة»[٤].

ويبين أهل العلم وجه الفصل بين الجمل المبتدأة بالأمر بالنظر، قال أبو حيان: «وتكرر الأمر بالنظر إلى الطعام والشراب في الثلاث الخوارق، ولم ينسق نسق المفردات؛ لأن كل واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، وبدأ أولاً بالنظر إلى

---

(١) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الإمام، الحافظ، العلامة، شيخ التفسير، كان أحد أوعية العلم، له كتاب التفسير الكبير، قال السمعاني: يقال له: الثعلبي والثعالبي؛ وهو لقب له لا نسب، توفي سنة سبع وعشرين وأربع مائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٣٧).

(٢) الكشف والبيان (٢/ ٢٤٧).

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ٨٦٥-٨٦٩)، بحر العلوم (١/ ١٩٨)، الوجيز للواحدي (١/ ١٨٦)، البسيط (٤/ ٤٨٦-٤٩٥)، زاد المسير (١/ ٣١٢)، مفاتيح الغيب (٧/ ٣٠-٣٣)، أنوار التنزيل (١/ ٥٦٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٩١)، إرشاد العقل السليم(١/ ٢٥٤)، فتح القدير (١/ ٢٧٩)، روح المعاني (٣/ ٢٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٢/ ١٠٨)، تفسير السعدي (ص: ١١٢).

(٤) البحر المحيط (٢/ ٢٢١).

الطعام والشراب حيث لم يتغيرا على طول هذه المدة؛ لأن ذلك أبلغ، إذ هما من الأشياء التي يتسارع إليها الفساد، إذ ما قام به الحياة وهو الحمار يمكن بقاؤه الزمان الطويل...

ولما أمر بالنظر إلى الطعام والشراب، وبالنظر إلى الحمار، وهذه الأشياء هي التي كانت صحبته، وقال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك، ولما كان قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾كالمجمل، بين له جهة النظر بالنسبة إلى الحمار، فجاء النظر الثالث توضيحاً للنظر الثاني، من أي جهة ينظر إلى الحمار، وهي جهة إحيائه، وارتفاع عظامه شيئاً فشيئاً عند التركيب وكسوتها اللحم، فليس نظراً مستقلاً، بل هو من تمام النظر الثاني، فلذلك حسن الفصل بين النظرين بقوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

ويجعل البقاعي السرَّ في ذلك: أنه ﷻ «لما أمره بالنظر إلى ما جعله له آية على لبثه ذلك الزمن الطويل- وهو عدم تغير الطعام والشراب، وموت الحمار-أمره بالنظر إلى ما جعله له آية على اقتداره على الإحياء كيفما أراد فقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾»[2].

ويبدو لي وجه قريب من هذا، وهو: أن الله -جل شأنه- ذكر الأشياء التي تمت وانقضت، ليراها مباشرة بعد إحيائه، وهي: طعامه وشرابه لم يتغير مع ذهاب حماره في الأرض، ثم بين الحكمة من هذا، وأنها لم تكن عبثاً، فقال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهذا أمرٌ لا يتعلق به وحده، بل يتعداه إلى غيره، فيشاركه فيه من يراه، وقد حصل هذا، كما تذكر لنا كتب التفسير، فتحقق ما جعله الله علة لهذا الفعل، ثم أراه الله فعلاً يتعلق به وحده، وأمراً يبصره هو دون ما سواه، ألا وهو: إنشاز

(١) البحر المحيط (٢/ ٢٢١).

(٢) نظم الدرر(١/ ٥٠٧).

العظام وكسوها لحماً، ولعل سببه أنه استبعد الإحياء، فأراه الله يُسرَ ما استبعده على ربه ﷻ.

ويضيف الألوسي وجهاً حسناً في سر الربط بين الأمر بالنظر إلى الطعام والشراب ، وبين الأمر بالنظر إلى الحمار، فيقول: «وفيه دليل على ما ذكر من اللبث المديد، ولذلك قرن بينه وبين الأمر بالنظر إلى حماره، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ ... وكرر الأمر؛ لِمَ أنَّ المأمور به أولاً: هو النظر إليها من حيث الدلالة على المكث المديد.

وثانياً: هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها»[(١)].

وبعد هذا، كيف نقول: إنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً؟!!!

بل الآية على نسقها، فلا تقديم ولا تأخير، والعلم عند الله تعالى.

الموضع السابع:التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٧٣].

قال الإمام البغوي: «﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾فتح وغنيمة﴿لَيَقُولَنَّ ﴾هذا المنافق ، وفيه تقديم وتأخير، وقوله: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ متصل بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ تقديره: فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأنْ لمْ تكنْ بينكُمْ وبينَهُ مودةٌ »[(٢)].

الدراسة:يرى الإمام البغوي أن في الآية تقديماً وتأخيراً، حيث أخر قوله: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ وحقه التقديم، فتقدير الكلام: فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأنْ لمْ تكنْ بينكُمْ وبينَهُ مودةٌ.

---

(١) روح المعاني (٣/ ٢٣).

(٢) معالم التنزيل(٢/ ٢٤٩).

وهذا قول مقاتل بن حيان[١]، واختاره الواحدي وابن عرفة[٢].

وحكاه الزجاج وجهاً جائزاً في الآية، ونسبه البعض إليه قولاً، وهو خطأ[٣].

وقد ردَّ هذا القول غير واحد من المفسرين، منهم الراغب وابن عطية والبيضاوي، قال الراغب: «وذلك مستقبح في العربية، فإنه لا يفصل بين بعض الجملة التي دخل في إثباتها»[٤].

والمعنى: لا يفصل بين الجملة وبعض أجزائها، كما هو لازم هذا القول.

قال ابن عطية: «وهذا ضعيف؛ لأنه يفسد فصاحة الكلام»[٥].

ولعله للسبب المذكور.

وآخرون لم يروا التقديم والتأخير في الآية الكريمة، بل رأوها على نسقها، منهم: الطبري والسمرقندي والثعلبي ومكي والزمخشري وابن جزي وابن كثير وأبو السعود والشوكاني والألوسي والسعدي وابن عاشور[٦].

قال ابن عادل : «وعلى هذا أكثر النَّاسِ»[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم (٣/ ١٠٠٠) وابن المنذر في تفسيره (٢/ ٧٨٨).

(٢) الوجيز للواحدي(١/ ٢٧٤)، تفسير ابن عرفة (٢/ ٣٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٧٦)، تفسير السمعاني (١/ ٤٤٧)، فتح القدير (١/ ٤٨٦).
وقد عزا ابن عادل في اللباب (٦/ ٤٩٠) هذا القول إلى الزجاج، والحق أنه جوزه كمعنى في الآية الكريمة، وهذا لا يقتضي أنه يراه.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٣/ ١٣٢١).

(٥) المحرر الوجيز(٢/ ٦٠٢)، وانظر: أنوار التنزيل (٢/ ٢١٧)، وحاشية زاده(٣/ ٣٦١).

(٦) انظر: جامع البيان(٧/ ٢١٩)، بحر العلوم (١/ ٣٤٣)، الكشف والبيان (٣/ ٣٤٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ١٣٨٦)، الكشاف (١/ ٥٦٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٤٨)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٨)، إرشاد العقل السليم(٢/ ٢٠١)، فتح القدير (١/ ٤٨٦)، تفسير الألوسي (٤/ ١٣١)، تفسير السعدي (ص: ١٨٦)، التحرير والتنوير (٥/ ١٢٠).

(٧) اللباب في علوم الكتاب (٦/ ٤٩١).

وهذا منهم إعمال للأصل.

وهذا القول هو الراجح -إن شاء الله تعالى- في فهم الآية الكريمة؛لأنه الأصل، ولم يظهر لي في القول الذي ذهب إليه البغوي رحمه الله حجة توجب المصير إليها، بحيث تنقلنا عن الأصل، والله تعالى أعلم.

الموضع الثامن: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

قال الإمام البغوي:« قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾أَيْ: إِنْ شَكَرْتُمْ نَعْمَاءَهُ ﴿وَءَامَنتُمْ ﴾ بِهِ، فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: إِنْ آمَنْتُمْ وَشَكَرْتُمْ؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ لَا يَنْفَعُ مَعَ عَدَمِ الْإِيمَانِ »[(١)].

الدراسة: يرى الإمام البغوي أن في الآية تقديماً وتأخيراً، فالمقدم فيها لفظ الشكر، وحقه التأخير، ثم بين علة هذا القول، وهي: أن الشكر لا يتقدم على الإيمان رتبة، فكذلك لفظاً، أي أن الإيمان شرط للشكر، فلا يقدم عليه.

والبغوي في هذا متابع للثعلبي والواحدي[(٢)]، ووافقهم ابن الجوزي[(٣)].

وهذا القول منسوب لأهل المعاني[(٤)]، بل نسبه الواحدي لأهل العلم[(٥)].

وهم يذكرون العلة التي يذكرها الإمام البغوي.

وهذا القول مخالف للأصل-كما ذكرنا في سابقه-،ولذا فكثير، بل أكثر المفسرين على خلافه، كما سيأتي.

---

(١) معالم التنزيل(٢/ ٣٠٣)، وانظر: مفاتيح الغيب(١١/ ٢٥٢)، اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٩٤).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٣/ ٤٠٦)، الوسيط للواحدي (٢/ ١٣٤).

(٣) انظر: زاد المسير (٢/ ٢٣٦).

(٤) لباب التأويل(١/ ٦١٤).

(٥) انظر التفسير البسيط للواحدي(٧/ ١٦٩).

وقد انتقد أبو حيان هذا القول، فقال: «وأبعد من ذهب إلى أنه على التقديم والتأخير، أي: إن آمنتم وشكرتم»[(١)].

ولعل سبب هذا من أبي حيان، هو أن القول مع مخالفته للأصل، لا دليل يؤيده، ولا حجة بينة تعضده. وما ذكروه من أنَّ الأصل الإيمان، فيكون مقدماً، فإن المفضول ربما عرض له من الأمور والأحوال ما يجعله مقدماً في بعض المواضع على الفاضل.

ولما ذكر الألوسي وجه تقديم الشكر على الإيمان، قال:«فلا حاجة إلى ما زعمه الإمام[(٢)] من أن الكلام على التقديم والتأخير»[(٣)].

وعلى كلٍ، فادعاء اختلال النظم القرآني ليس بالأمر الهين، فلا يصار إليه إلا بحجة ظاهرة.

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن الآية على نسقها؛ جرياً على الأصل، وفي توجيه تقديم الشكر على التوحيد ذكروا أقوالاً عدة، منها:

أولاً: أن معنى الشكر في الآية التوحيد، وحينئذ فلا إشكال.

وقد ذكر عن ابن عباس هذا القول[(٤)].

واختاره أبو الليث السمرقندي[(٥)].

وثانياً: ما قاله الزمخشري جواباً عن هذا الأمر، حيث قال: «قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه، وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً

(١) البحر المحيط (٣/ ٣٠٩).

(٢) يريد الرازي.

(٣) روح المعاني (٥/ ١٧٩).

(٤) حكاه عنه أبو حيان في البحر المحيط (٣/ ٣٠٩) ولم أجده في الكتب المسندة.

(٥) بحر العلوم (١/ ٣٧٦)، وقال: « ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ يعني إن آمنتم بالله تعالى ووحدتموه، ...﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به وصدقتم رسله ».

مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكراً مفصلاً، فكان الشكر متقدماً على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره» [(١)].

ومعنى هذا: أن الشكر يستلزم الإيمان، فهو سبيل دال عليه وسبب مؤدٍ إليه.

وهذا الجواب لا غبار عليه، لكن انتقده ابن عرفة لا من هذا الوجه، بل لأن الزمخشري بناه على أصل عقدي، يقول ابن عرفة: «قال الزمخشري: والشكر سبب في الإيمان.

قال ابن عرفة: هذا جار على مذهبه؛ لأنه يقول: شكر المؤمن واجب عقلاً، والجواب عندنا: أنه إنما قدم الشكر على الإيمان أنه يستلزم الإيمان بالفعل، ثم قال (وَآمَنْتُمْ) أي دمتم على الإيمان، فشكرتم يستلزم تقدم إيمانهم ثم دوامهم عليه» [(٢)].

ولنا أن نناقش، فنقول: والإيمان كذلك، واجب عقلاً، فلا يزال السؤال قائماً: لماذا قدم الشكر؟!!

وأيضاً: الحق ضالة المؤمن، فأينما وجده، فهو أولى الناس به، فلا يمنعنا من قبول الحق أن يقول به مخالفنا، ولو رددناه لرددنا الحق، ولم نرد قول المخالف.

فهذه الجملة من الزمخشري صحيحة لا تثريب عليها-إن شاء الله تعالى- ثم ما كان لها من دافع باطل، فإننا نرد الباطل بعينه.

والعجيب أن ابن عرفة جاء بوجه قريب، فقال: الشكر يستلزم الإيمان، فهذا كما ترى قريب جداً من جواب الزمخشري.

وبجواب الزمخشري قال كثير من العلماء، قال الراغب: «إن قيل: لم أخر الإيمان عن الشكر؟

---

(١) الكشاف (١/ ٦١٦).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢/ ٦٦).

قيل: لأنه عنى به معرفة النعمة التي يتوصل به إلى معرفة النعم، ومعرفة المنعم هي الإيمان، فإذاً، الشكر على هذا الوجه مقدم على الإيمان؛ لأنه أرفع منه، وهو لا ينفك عن الإيمان، والإيمان قد ينفك عنه»[1].

وأضاف الألوسي رحمه الله وجهاً آخر، وهو: أن الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن المنافقين وأوصافهم ثم الجزاء المعد لهم، وأنهم في الدرك الأسفل من النار، جاء التنبيه في هذه الآية الكريمة -لهم ولغيرهم- على أن الذي ورطهم في تلك الورطة كفرانهم نعم الله تعالى، وتهاونهم في شكر ما أوتوا، فقدم؛ لكونه محصلة لمعانٍ مطلوبة، كان إغفالها سبباً في العذاب الأليم، فهو «فذلكة لمعنى الرجوع عن الفساد في الأرض إلى الإصلاح فيها، ومن اللجأ إلى الخلق إلى الاعتصام بالله تعالى، ومن الرياء في الدين إلى الإخلاص فيه، فقوله عز من قائل: ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ تفسير له وتقرير لمعناه، أي: وآمنتم الإيمان الذي هو حائز لتلك الخلال الفواضل، جامع لتلك الخصال الكوامل، فتقديم الشكر على الإيمان، وحقه التأخير في الأصل إعلام بأن الكلام فيه، وأن الآية السابقة مسوقة لبيان كفران نعمة الله تعالى العظمى، والكفر تابع، فإذا أخر الشكر أخل بهذه الأسرار واللطائف، ومن ثم ذيل سبحانه الآية على سبيل التعليل بقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾»[2].

على أن كثيراً من المفسرين لم يتعرض إلى مسألة التقديم، بل فسروا الآية على ما يظهر منها من عدم التقديم والتأخير، وهذا ظاهر أنهم لا يرون التقديم ولا

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٤/ ٢٠٩)، وانظر: مفاتيح الغيب(١١/ ٢٥٢)، أنوار التنزيل (٢/ ٢٧٢)، مدارك التنزيل(١/ ٤٠٩)، التسهيل لابن جزي(١/ ٢١٦)، اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٩٤)، إرشاد العقل السليم(٢/ ٢٤٧)، تفسير المنار (٥/ ٣٨٦).

(٢) روح المعاني (٥/ ١٨٠).

التأخير، بل يرون الآية الكريمة على نسقها، ومن هؤلاء: مكي والسمعاني والقرطبي وابن كثير والشوكاني وصديق حسن خان وابن عاشور[١].

والذي يترجح-إن شاء الله تعالى- أن الآية على نسقها، وأن دعوى التقديم والتأخير مجرد دعوى، والعلة المذكورة مقابلة بمثلها، بل وأقوى منها.

ولعل حاصلها يرجع إلى أن المقصود-والعلم عنده تعالى- إظهار شرف الشكر، وبيان منزلته، وهذا يتأتى بقوة حينما يقدم على الإيمان، وقد استقر في نفوس المؤمنين مكانة الإيمان، فلا يقدم عليه إلا ما هو من الدين بالمكانة العلية والمنزلة الرفيعة.

الموضع التاسع: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[المائدة:٦٩].

قال الإمام البغوي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾

قال سيبويه[٢]:« فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادَوْا وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَالصَّابِئُونَ كَذَلِكَ »[٣].

الدراسة: اعلم أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي وقع فيها خلاف كبير بين العلماء، وعدها جمع منهم من الآيات المشكلة[٤]، وقد طعن بعض الملحدين بالقرآن الكريم لأجل هذه الآية الكريمة، وادعى أنها خطأ[٥].

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/ ١٥١٠)، تفسير السمعاني(١/ ٤٩٥)، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٨) ، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٢)، فتح القدير (١/ ٥٣٠)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٣/ ٢٨٠)، التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٥).

(٢) في الكتاب (٢/ ١٥٥).

(٣) معالم التنزيل(٣/ ٨١)، وانظر: تفسير السمعاني (٢/ ٥٤)، الدر المصون(٤/ ٣٥٣)، نواهد الأبكار (٣/ ٢٩٠)، روح المعاني (٦/ ٢٠٢).

(٤) انظر: التسهيل لابن جزي (١/ ٢٤٥).

(٥) انظر: رد البهتان عن إعراب آيات من القرآن الكريم(ص٧٦).

وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، أولئك أعداء الحق، والحق بين لو أرادوه، وسيتبين لك من خلال دراسة هذه الآية أنه لا صحة لما فاهوا به.

ينقل الإمام البغوي رحمه الله عن سيبويه قولاً في فهم الآية الكريمة المذكورة أعلاه، مفاده: ادعاء التقديم والتأخير فيها.

والسبب هو أن لفظة الصابئين في الآية جاءت مرفوعة، رغم أنها معطوفة على منصوب، ومعلوم في اللغة أن المعطوف من التوابع؛ فدرءاً لهذا الإشكال قال سيبويه بالتقديم والتأخير، ليصبح نسق الآية: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله إلى آخر الآية، والصابئون كذلك.

فيكون: والصابئون مرفوع على الابتداء، وخبره محذوف، دل عليه ما بعده[1].

وأنشد سيبويه شاهداً لهذا:

وإلاَّ فاعلَمُوا أنَّا وأنتمْ ... بُغاةٌ ما بَقِينا في شِقاقِ[2].

أي: وإلا فاعلموا أنَّا بغَاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضاً كذلك.

فقوله: وأنتم مقدم في اللفظ، مؤخر في المعنى، أي: وأنتم كذلك[3].

وهذا القول معزو للخليل وجميع البصريين[4].

واختاره ممن صنف في التفسير: ابن أبي زمنين والواحدي والزمخشري والبيضاوي وأبو السعود[5].

---

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ١٩٣).

(٢) أنشده سيبويه في الكتاب (٢/ ١٥٦) لبشر بن أبى خازم، وانظر: شرح أبيات سيبويه (٢/ ٣١)، أسرار العربية (ص:١٤٧)، خزانة الأدب (١٠/ ٣١٥).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١٩٣)، تفسير الراغب الأصفهاني (٥/ ٤٠٥)، المحرر الوجيز(٣/ ٢٢٠)، زاد المسير (١/ ٥٧٠)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/ ٣٥٤).

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج (٢/ ١٩٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ١٨٠٨)، البحر المحيط (٣/ ٥٣١).

(٥) انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٣٨)، الوسيط(٢/ ٢١٠)، الكشاف (١/ ٦٦١)، أنوار التنزيل (٢/ ١٣٧)، إرشاد العقل السليم(٣/ ٦٢).

وأوردوا ههنا فائدة التقديم والتأخير، وتتابعوا عليها، فقال البيضاوي:«لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يتاب عليهم -إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح- كان غيرهم أولى بذلك»[١].

وانتقده ابن عاشور بأنه:«يفضي إلى اختلاف المتعاطفات في الحكم، وتشتيتها مع إمكان التفصّي عن ذلك»[٢].

وأيضاً يقال: التقديم والتأخير لا يصار إليه إلا إذا عدمنا غيره من الأجوبة السليمة، فهذا مما يعاب على هذا القول، وأيضاً: يلزم منه التقدير، والأولى عدمه - كما هو معلوم-.

ولم ير آخرون من أهل العلم التقديم والتأخير، ورأوا أنَّ الآية على نسقها، واختلفوا في توجيه الإشكال المذكور على أقوال أشهرها[٣]:

- أنه معطوف على موضع اسم إنَّ؛ لأنه قبل دخول إنَّ كان في موضع رفع، فلمَّا دخلَتْ عليه لم تغيِّر معناه بل أكَّدته، غايةُ ما في الباب أنها عَمِلَتْ فيه لفظاً، ولذلك اختصَّتْ هي و(أن) بالفتح.

وهذا مذهب الكسائي والفراء[٤].

قال أبو حيان: «أما الكسائي، فإنه أجاز رفع المعطوف على الموضع سواء كان الاسم مما خفي فيه الإعراب، أو مما ظهر فيه.

---

(١) أنوار التنزيل (٢/ ١٣٧)، وانظر: لباب التأويل(٢/ ٧٥)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤)، تفسير الإيجي (١/ ٤٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٦٩).

(٣) انظرها في:البسيط(٧/ ٤٧٢)، الجامع لأحكام القرآن(٨/ ٩٤)، البحر المحيط (٣/ ٥٣١)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤)، الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٢٤٩).

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٣١١)، البسيط(٧/ ٤٧٣)، البحر المحيط (٣/ ٥٣١).

وأما الفراء، فإنه أجاز ذلك بشرط خفاء الإعراب، واسم إن هنا خفي فيه الإعراب»[1].

وحكوا دليلاً على مذهبهم هذا، ألا وهو: قولهم: إنهم أجمعون ذاهبون[2]، وآكد من هذا هذه الآية الكريمة، وقراءة من قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] بالرفع لـ (ملائكتُه)[3].

وكأن ابن كثير يذهب إلى هذا، حيث قال: « ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع»[4].

ويظهر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجهاً حسناً -كعادته في الغوص على دقائق العلم- في سبب تقديم الصابئين على النصارى مع رفعها، يتبين فيه اختياره لهذا القول، فيقول: «فإن النصارى أفضل من الصابئين، فلما قدموا عليهم نصب لفظ الصابئون[5]، ولكن الصابئون أقدم في الزمان، فقدموا ههنا؛ لتقدم زمنهم، ورفع اللفظ؛ ليكون ذلك عطفا على المحل، فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير، ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن واللفظ»[6].

فانظر إلى هذه الفائدة الجليلة من هذا الإمام الجليل رحمه الله؛ لترى كيف يفتح الله على عبده ويمن على من يشاء من عباده،﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢٩].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥٣١).

(٢) انظر رد هذا ومناقشته في الكتاب لسيبويه (٢/ ١٥٥)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

(٣) نسبها لابن عباس الثعلبي في تفسيره (٨/ ٦١)، وابن عطية في المحرر الوجيز(٤/ ٣٩٨)، والشوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٠٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٦)، وأيضاً: السمرقندي يختاره، انظر: بحر العلوم (١/ ٤٣٠).

(٥) كما في سورة البقرة الآية (٦٢)، وفي سورة الحج آية (١٧).

(٦) الصفدية (٢/ ٣٠٤).

ولم يسلم هذا القول من الانتقاد، وقد قام انتقاده على شيء واحد، وهو أَنَّه لا عطف على موضع اسم إن إلا إذا اكتمل الخبر، فتعطف وترفع، وقبله -كما ههنا- إن عطفت وجب النصب.

قال الزجاج: «وهذا التفسير إِقدام عظيم على كتاب اللهَّ، وذلك أَنهم زعموا أن نَصْبَ (إِنَّ) ضعيف؛ لأنها إِنما تغيِّرُ الاسم ولا تغير الخبرَ، وهذا غلط؛ لأن (إِنَّ) عملت عَمَلَيْن: النَصْبَ، والرفع، ولَيْسَ في العربية ناصب ليس معه مرفُوع؛ لأنَّ كل منصوب مشبه بالمفعول، والمفعول لا يكون بغير فاعل إِلا فيما لم يسم فاعله، وكيف يكون نصب (إِنَّ) ضعيفاً وهي تتخطى الظروف فتنصب ما بعدها.

نحو قوله: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة:٢٢].

ونَصْب إِنَّ مِنْ أَقْوَى المنْصوبَاتِ»[(١)].

وبنحوه رده أبو البقاء العكبري، ووصفه بكونه فاسداً، فقال:«واختار الكسائيّ الرفع فيهما، والرفع فاسد؛ لأنَّ الخبر إذا ثنِّي كان خبراً عن الاسمين، وكان العمل فيه عملاً واحداً، وقد تقدَّم عاملان: أحدُهما:

(إنَّ)، والآخر المبتدأ المعطوف، والعمل الواحد لا يوجبه عاملان»[(٢)].

ورده الزمخشري والبيضاوي والسمين الحلبي، وزعم أن مذهب المحققين في هذه المسألة النحوية المنع مطلقاً[(٣)].

فهذا وجه، ووجه ثانٍ، وهو:

أن ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوع معطوف على الضمير المرفوع في ﴿هَادُواْ﴾.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ١٩٣).

(٢) اللباب في علل البناء والإعراب (١/ ٢١٢).

(٣) انظر: الكشاف (١/ ٦٦١)، أنوار التنزيل (٢/ ١٣٦)، البحر المحيط (٣/ ٥٣١)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

وحكى هذا القول غير واحد عن الكسائي[(١)].

ورد هذا القول بأنّ العطف عليه يقتضي أنّ الصابئين تهودوا، وليس الأمر كذلك، قال مكي: «وهو قول مطعون فيه؛ لأنه يلزم أن يكون الصابئون دخلوا في اليهودية»[(٢)].

الوجه الثالث: أن تكون (إنَّ) بمعنى (نعم) حرف جواب، وما بعده مرفوع بالابتداء، فيكون ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ معطوفاً على ما قبله من المرفوع.

ولم يُرتض هذا الوجه ووصف بالضعف، وذلك؛ للأسباب الآتية:

- أولاً: أن كلمة (نعم) -وهي الأم في الباب- لا تأتي في أول الكلام، بل لابد من سبق استفهام لها، فهي جواب لكلام سابق، فكيف بـ(إنَّ) إن قلنا هي بمعنى نعم.

- في ثبوت (إنَّ) بمعنى (نعم) خلاف بين النحويين، حتى وصف ابن هشام هذا القول بالشذوذ[(٣)].

- ثم على القول بصحة هذا المعنى، فلا يصار إليه إلا بدليل؛ لأنه ليس كل معنى جاز في العربية يصح حمل معاني ألفاظ الكتاب العزيز عليه.

الوجه الرابع: كقول سيبويه والخليل: أنَّ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ، إلا أنه لا يُنْوى بهذا المبتدأِ التأخيرُ.

وضعف هذا القول أيضاً؛ لِما فيه من لزومِ الجمع بين الحذفِ والفصلِ[(٤)].

---

(١) انظر: البسيط(٧/ ٤٧٢)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ١٨٠٨)، وانظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٣٢)، التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٢٢)، أنوار التنزيل (٢/ ١٣٧)، البحر المحيط (٣/ ٥٣١)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

(٣) انظر: مغني اللبيب (١/ ٢٤٠) وتعليق المحقق، والذي يظهر أنها تأتي بمعنى نعم، فقد أثبتها جمع من علماء العربية، والمثبت مقدم على النافي.

(٤) انظر: التبيان في إعراب القرآن (١/ ٢٢٢)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

الوجه الخامس: أنَّ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ منصوبٌ، وإنما جاء على لغةِ بني الحارث وغيرِهم الذين يَجْعَلون المثَّنى بالألفِ في كل حال نحو: رأيت الزيدان، ومررت بالزيدان .

لكن اللغة مبناها على النقل، ولم ينقل هذا إلا في المثنى، لا في الجمع، ومن ثم، قال السمين الحلبي: «وهذا ضعيفٌ بل فاسدٌ» (١).

الوجه السادس: أن يقدر خبر محذوف قبل العطف مدلول عليه بخبر ما بعده، فيكون التقدير: إن الذين آمنوا فرحون، والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وإليه ذهب ابن مالك، وذكر أنه أسهل من قول سيبويه؛ لأنَّ في قول سيبويه التقديم والتأخير، وهذا القول سالم منه(٢).

واختاره الشيخ ابن عاشور، وقال:«والّذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النّظم وأليق بمعنى هذه الآية»(٣).

وبعد، فلعل الراجح من هذه الأقوال هو قول من قال: الآية على نسقها، وأن كلمة (الصابئون) معطوفة على موضع اسم إن، فيجوز الوجهان الرفع والنصب، وخبر إن محذوف دل عليه خبر الاسم المعطوف.

وهذا مذهب إمام من أئمة العربية والقراءات وهو الكسائي، وسار عليه جمع من علماء الكوفة، وتعضده آية من القرآن الكريم، وقراءة قرأ بها ابن عباس، وشواهد من شعر العرب وكلامهم.

---

(١) الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

(٢) انظر: أسرار العربية (ص: ١٤٧)، شرح التسهيل(٢/ ٥٠)، الدر المصون (٤/ ٣٥٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢٧٠).

فهذا كافٍ في إثبات هذه المسألة النحوية، ومن ثم القول بموجبها، «والإعراب صناعة يستعان بها على ضبط كلام العرب وفهمه، والعمدة في إثبات اللغات كلها السماع من أهلها، وقد ثبت بالسماع أنَّ هذا الاستعمال فصيح» [1].

ولقد أحسن الأستاذ عباس حسن حينما عرض لهذه المسألة في كتابه القيم (النحو الوافي)، حينما قال منتصراً لهذا المذهب: «ولا اعتداد برأي من يرفض الرفع في الصورة التي لا مطابقة فيها، وغيرها... فلو أخذنا برأيه لاعترضتنا أمثلة ناصعة الفصاحة من القرآن الكريم، والكلام العربي الصحيح، ولم نجد بدا من التمحل المعيب، والتأويل البغيض.

وكيف يوجب كثير من النحاة النصب -وحده- عند العطف بعد الاسم وقبل مجيء خبر (إن) مع مجيء الرفع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾...

كيف يقبلون أن تؤول الآية -بغير داع- لتطابق القاعدة، ولا يتصرفون في القاعدة تصرفاً صريحاً يساير الآية، مع اعتقادهم أنَّ القرآن أفصح كلام عربي وأعلاه.

ولم التمحل في الأمثلة العربية الأخرى-وهي كثيرة- وترك القاعدة بغير إصلاح؟

وهل يصير الأسلوب الفاسد صالحاً بمجرد التأويل والنية الخفية من غير تغيير يطرأ على ظاهره؟!!» [2].

الموضع العاشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨].

---

(١) قاله محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٦/ ٣٩٥).

(٢) النحو الوافي(١/ ٦٩٩-٦٧٠).

قال البغوي رحمه الله: « فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ طَلَبَ الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ وَهُمْ كُفَّارٌ، وَكَيْفَ قَالَ: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وَهَذَا لَا يَلِيقُ بِسُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ، ؟...

وَأَمَّا السُّؤَالُ الثَّانِي: فَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقْرَأُ: «وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أنت الغفور الرحيم»(١)، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مُصْحَفِهِ.

وَأَمَّا عَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَعْرُوفَةِ، قِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ:

إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»(٢).

الدراسة: في هذه الآية الكريمة يرد استفهام على الذهن، ألا وهو: لماذا ختم عيسى عليه السلام مسألته وهي سؤال المغفرة باسم الله العزيز الحكيم، مع أن المناسب لسؤال المغفرة استعمال اسم الغفور، كما استعمله إبراهيم عليه السلام، حيث قال:﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[إبراهيم:٣٦].

ثم كيف يطلب عيسى عليه السلام المغفرة لقوم أشركوا بالله عز وجل؟!!.

هذا السؤالان من أهم مباحث الآية الكريمة.

والذي يتعلق ببحثنا السؤال الأول، ولذا قدمته، وإن كان -إن شاء الله- في أثناء البحث سنتطرق -ولابد- للسؤال الثاني.

وقد ذكر الإمام البغوي رحمه الله من جملة الأقوال التي فيها بيان وإيضاح لما نحن فيه: أنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً، فيكون المعنى:

إن تغفر لهم فإنهم عبادك، وإن تعذبهم، فإنك أنت العزيز الحكيم.

فقدمت -في الآية الكريمة- جملة﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ وحقها التأخير، بينما أخرت ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وحقها التقديم.

---

(١) ذكر هذه القراءة أيضاً: الواحدي في البسيط (٧/ ٦٠٤)، والسمعاني في تفسيره (٢/ ٨٣).

(٢) معالم التنزيل(٣/ ١٢٢- ١٢٣).

ولم يعز البغوي هذا القول، بل حكاه على صيغة التمريض[1].

وهذا القول لا دليل يسنده، ولا حجة تعضده، والأصل عدم التقديم والتأخير.

ولهذا؛ لم يحكه إلا القليل من المفسرين، وعلى صيغة التمريض والتضعيف.

ولذا قال القرطبي بعد حكايته: «ووجه الكلام على نسقه أولى؛ لما بيناه»[2].

وفي الجواب على السؤال المذكور أقوال أخرى، تشترك في أنها لم تر التقديم والتأخير، فمنها:

أن المعنى: إن تعذبهم بإماتتك إياهم على هذه المقولة الكفرية ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ مستسلمون لك، لا يملكون دفعاً ولا رفعاً ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بهدايتك إياهم إلى التوبة منها ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا مذهب الطبري وابن أبي زمنين ومكي[3].

لكن الطبري يرى أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] في الدنيا لما رفع الله عبده عيسى عليه السلام إليه، وأنَّ الخبرَ خبرٌ عما مضى.

بينما يرى ابن أبي زمنين خلاف هذا، لكن يرى أن التوبة من الله على من تاب كانت في زمنها المقبول.

وقد أيد الطبري رحمه الله هذا المذهب بدليلين اثنين، هما:

---

(١) وكذا فعل أبو الليث السمرقندي في بحر العلوم (١/ ٤٥٣)، والإمام السمعاني في تفسيره(٢/ ٨٣) والقرطبي في الجامع (٨/ ٣٠٠)، وابن عادل في اللباب (٧/ ٦٢٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٠٠).

(٣) انظر: جامع البيان (٩/ ١٣٩)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢/ ٥٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ١٩٤٩).

- أنَّ (إذْ) تستعمل -في الأغلب من كلام العرب- مع الماضيَ من الفعل، وإن كان ربما استعلمت فيما يستقبل، غير أن توجيه معاني كلام الله تعالى إلى الأشهر الأعرف أولى من توجيهها إلى الأجهل الأنكر.

- أنَّه لا يمكن أن يكون هذا في الآخرة مع قول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ في حق قوم كفروا بالله تعالى، وعيسى يعلم أن الله لا يغفر لمشرك، فلا يمكن كونه في الآخرة.

ثم بنى رحمه الله على هذا سر اختيار عيسى عليه السلام لهذين الاسمين، فقال: «﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن أراد الانتقام منه، لا يقدر أحدٌ يدفعه عنه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة، وتوفيقه من وفَّق منهم لسبيل النجاة من العقاب»[(١)].

فجعل اسم العزيز متعلقاً بإيصال العذاب لمستحقه، والحكيم في التوبة على أهلها، واستعمال اسم العزيز مع ذكر العذاب في غاية المناسبة، وقد ورد في آيات كثيرة جداً، فمنها سورة الشعراء، فكلما ختم الله نبأ أمة عاتية كافرة بالهلاك أعقب ذلك بذكر اسمه العزيز الذي لا يغلب، ولا ينتهي أمره إلا إلى حيث شاء جل جلاله.

ولكن في هذا الرأي مناقشة، فكونه في الدنيا: يرده قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:١١٩] فظاهر القول أنه رد وجواب من ربنا لكلام نبيه عيسى عليه السلام، لا كلام مستأنف لا علاقة له بالآيات قبله [(٢)].

ويرده ما قبله أيضاً: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾[المائدة:١٠٩] الآية [(٣)].

---

(١) جامع البيان(٩/ ١٣٩).

(٢) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٧/ ١١٧): «﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:١١٩] جواب عن قول عيسى ، فلذلك فصلت الجملة على طريقة الحوار» .
وهذا مذهب أكثر المفسرين، قاله القرطبي في تفسيره(٨/ ٣٠٠).

(٣) انظر: الجامع للقرطبي(٨/ ٣٠٠).

ويناقش ابن كثير ابن جرير، فيقول: «وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضي، ليدل على الوقوع والثبوت.

ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية: التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات» (١).

ولم ير آخرون من أهل العلم إشكالاً في ختم الآية الكريمة باسم العزيز؛ لأنَّ الرحمة لابد لها من عزة توصلها حتى لا تمنع، وتصد عن أربابها.

وهذا المعنى يذكر الله به عبادة في أكثر من آية، ويختم باسم العزيز، أو ما يؤدي هذا المعنى، فيقول جل في علاه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان:٤٠-٤٢]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨].

ومن هؤلاء العلماء الزجاج، حيث قال: «وأنت في مغفرتك لهم عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في ذلك»(٢).

وكان رحمه الله قد رأى-في الجواب عن السؤال الآخر- أن قول عيسى عليه السلام هو في جملتهم؛ لأنه قد علم أن منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: من كفر منهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: لمن أقلعَ منهم وآمن.

واستحسنه القرطبي(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير(٣/ ٢٣٢).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٢٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٠٥).

قال الراغب الأصفهاني:«فإن قيل: فكيف قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالأليق أن يوضع الغفور؟!! قيل: العزة ههنا أولى، فهي تنبيه أنك تجمع القدرة والحكمة، ولم يقصد إنزال الغفران للكفرة منهم» (١).

إذاً-على هذا القول- كان مراد عيسى عليه السلام إظهار قدرته ﷻ واقتداره على أي من الأمرين، وليس السؤال للكافرين، فقد علم عيسى عليه السلام أنه ﷻ لا يغفر لمشرك، كما حكى الله عنه ذلك، حيث قال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢] (٢).

وقارب بعض أهل العلم من هذا القول، فقال: إن عيسى عليه السلام قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم (٣).

وهذا القول عند هذا الحد لا غبار عليه، من أنَّ عيسى فوض الأمر إلى ربه تعالى، وأنه يعذب بعدله، ويتفضل بحكمته، لولا ما يشوبه من العقائد التي لا يجوز -بحال- إغفالها حال فهم الكلام، فالبعض (٤) يريد: أن الله يعذب من يشاء

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٥/ ٥٠٥).

(٢) من غرائب ما يحكى فيما نحن فيه ما حكاه الزجاج في معاني القرآن (٢/ ٢٢٤) عن بعضهم حيث قال: «وقال بعض الناس: جائز أن يكون اللهَّ لم يُعْلِمْ عِيسى أنَّه لَا يَغْفِرُ الشرك، وهذا قول لا يعرج عليه؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] لا يخص شيئاً من أمَّة محمد ﷺ دون غيرها؛ لأن هذا خبر، والخبر لا ينسخ، وهذا القول دار في المناظرة، وليس شيئاً يعتقده أحد يوثق بعلمه».

وليت الزجاج رده بالآية التي فيها إعلام عيسى لبني إسرائيل عن عدم مغفرة الله للمشرك، فهي أقوى وأنص في الدلالة على المطلوب.

وقد وصف القرطبي في الجامع (٨/ ٣٠٥) هذا القول بأنه قول مجترئٍ على كتاب الله.

(٣) انظر: زاد المسير (٢/ ٤٦٥)، الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٠٦)، لباب التأويل(٢/ ١١٥)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٩٣)، التحرير والتنوير (٧/ ١١٧).

(٤) قال العلامة ابن القيم في مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٢٦): « فعارضهم أصحاب التفسير الثاني، وقالوا: الظلم المنزه عنه في الأمور الممتنعة لذاتها، فلا يجوز أن يكون مقدوراً، ولا أنه تعالى تركه بمشيئته واختياره، وإنما هو من باب الجمع بين الضدين، وجعل الجسم الواحد في مكانين، وقلب القديم محدثاً،=

ولو كان نبينا مرسلاً، أو ملكاً مقرباً، أو عبداً صالحاً، أو ولياً تقياً، وأنه قد يرحم عدواً كافراً، ولو كان بكفر فرعون، أو أكفر، وينعم على إبليس اللعين، ويكرمه بدخول الجنان وحلول الرضوان.

يؤكد هذا: أن الرازي لما ذكر الأوجه عن السؤال الوارد في الآية الكريمة، وهو كيف سأل عيسى عليه السلام المغفرة، والله تعالى لا يغفر لمشرك؟ ذكر أنَّ من الأجوبة :

«والثاني: أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة، وأنْ يدخل الزهاد والعُبَّاد النار؛ لأن الملك ملكه، ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكرم، ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله، وترك التعرض والاعتراض بالكلية، **ولذلك ختم الكلام بقوله:** ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **يعني: أنت قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل، لا اعتراض لأحد عليك،** فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية.

وقوله: إن الله لا يغفر الشرك، فنقول: غفرانه جائز عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة، قالوا: لأنَّ العقاب حق الله على المذنب، وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسناً، بل دلَّ الدليل السمعي في شرعنا، على أنَه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام» (١).

=والمحدث قديماً، ونحو ذلك، وإلا فكل ما يقدره الذهن، وكان وجوده ممكناً، والرب قادر عليه، فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله.

وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم، وفسروا الحديث به، وأسندوا ذلك، وقووه بآيات وآثار زعموا أنها تدل عليه كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يعني: لم تتصرف في غير ملكك، بل إن عذبت عذبت من تملك، وعلى هذا، فجوزوا تعذيب كل عبد له، ولو كان محسنا ولم يروا ذلك ظلما، بقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]».

(١) مفاتيح الغيب (١٢/ ١١٣)، والبعض من المفسرين حينما يكتب في هذا الشأن يشعرك بأنَّ الأمر مرده لله تعالى من دون أن تكون هناك حكمة، فلا ينبه على أن أمره ﷻ مرتبط بالحكمة، فمثلاً يقول بعضهم:« لا=

وهذا مذهب غير سديد، وبالرفض والرد جدير.

قال السيد رشيد رضا:«وهذا الوجه مخالف للمعقول والمنقول من نصوص القرآن، وصحاح الأحاديث من عدة وجوه، لا حاجة في هذا الموضع إلى تفصيلها، وترجيح مذهب السلف وأهل الأثر بها على مذهب الأشاعرة في موضوع إثبات العدل والحكمة لله تعالى -لا عليه- وتنزيهه عن ضدهما»[(١)].

وبعد، فيبقى هذا الوجه عند خلوه من عقيدة الأشاعرة خالٍ -إن شاء الله- من الاعتراض.

والحاصل من القول: أن التقديم والتأخير في الآية الكريمة لا دليل عليه، وهو دعوى مجردة عارية عن وجه من الحجة يبين صوابها، ويظهر صدقها.

فالآية الكريمة على نسقها، ثم يأت البحث بعد في السبب الذي لأجله ختمت الآية باسمي الله الكريمين العزيز الحكيم، بدلاً من الرحيم الغفور.

ولا مانع من ذكر أكثر من سببٍ وعلةٍ وحكمةٍ، إذ الجميع يحتمل وجهاً حسناً، في حالة سلامته من معتقد يخالف نصوصاً أخرى من الكتاب والسنة، وقد أبدى

=ينبغي لأحد أن يعترض عليك، فإن عذبتهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم ولست فاعلاً إذا ماتوا على الكفر، فلا اعتراض عليك». انظر: زاد المسير (٢/ ٤٦٥).

وهذا القول مما ينتقد، إذ هو صادر عن نفي العلة للأحكام الربانية، كما هي عقيدة الأشاعرة، وقد وجه له سهام النقد العلامة ابن القيم كما في مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٢٩).

(١) تفسير المنار(٧/ ٢٧١)، وانظر في هذه المسألة العقدية: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٣)، مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٧)، وانظر تعليق علمائنا على قول السفاريني في منظومته:

وجـــاز للمـــولى يعـــذب الـــورى من غـير مـا ذنـب ولا جـرم جـرى

تعليق الشيخين أبا بطين وابن سحمان على لوامع الأنوار البهية(١/ ٣٢٠-٣٢٦)، وتعليق الشيخ ابن قاسم في حاشيته على المنظومة (ص: ٥٣)، وتعليق ابن عثيمين عليها(ص٣٤٢) من شرحه للمنظومة السفارينية.

ابن القيم رحمه الله وجوهاً حسنة حينما تكلم على الآية الكريمة، وأنا ألخصها لك: قال رحمه الله: «أي: هم عبادك، فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم، فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره؛ لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال:هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم.

وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب»[1].

الموضع الحادي عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:١١].

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٩)، وانظر منه: (١/ ٣٦).

قال البغوي: «﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: الْأَمْرُ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ بَنِي آدَمَ، فَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا﴾ وَثُمَّ لِلتَّرْتِيبِ وَلِلتَّرَاخِي؟

قِيلَ: عَلَى قَوْلِ مَنْ يَصْرِفُ الْخَلْقَ وَالتَّصْوِيرَ إِلَى آدَمَ وَحْدَهُ يَسْتَقِيمُ هَذَا الْكَلَامُ، أَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَصْرِفُهُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ: فَعَنْهُ أَجْوِبَةٌ:

...وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولقد خلقناكم، يعني: آدم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا، ثم صورناكم» (١).

الدراسة: يرد في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو: لم قال الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾؟!! ومعلوم أن التصوير لبني آدم هو بعد أمر الله للملائكة بالسجود لأبينا آدم، ونلاحظ أنَّ عطف أمر الملائكة بالسجود على التصوير جاء بـ(ثم) المقتضية للترتيب.

فكان من جملة الأجوبة لهذا الإشكال هو أنَّ الآية على التقديم والتأخير، فيكون نسقها: ولقدْ خلقناكم، يعني آدم عليه السلام، ثمَّ قلنَا للملائكة اسجدوا لآدمَ، ثمَّ صورناكم (٢).

واختاره السمرقندي (٣).

ولكن لا نلجأ إلى التقديم والتأخير حتى نرى الأجوبة الأخرى، ومدى قوتها؛ لأن التقديم والتأخير مخالف للأصل.

ويشارك هذا القول في التقديم والتأخير قول من قال: إن (ثمَّ) ليست للترتيب.

وعلى هذا القول، فقد سلبناها معناها الأصلي، وجعلناها بمعنى الواو.

---

(١) معالم التنزيل(٣/ ٢١٦).

(٢) ذكر هذا الوجه جمع من المفسرين، انظر: الكشف والبيان (٤/ ٢١٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٢٩٥)، تفسير السمعاني (٢/ ١٦٧)، تفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٧٦)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٦٢)، اللباب في علوم الكتاب (٩/ ٢٨).

(٣) انظر: بحر العلوم (١/ ٥٢١).

قال مكي: «وهذا بعيد عن النحويين؛ لأنَّ (ثم) لا يجوز أن يراد بها التقديم على ما قبلها من الخبر، فقد أنكر هذا القول النحاس[١] وغيره» [٢].

قال الزجاج: «زعم الأخفش[٣] أن (ثم) ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته، إنما ثم للشيءِ الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير»[٤].

وقد ذكر المفسرون عن هذا الإشكال عدة أجوبة، كلها تشترك في عدم التقديم والتأخير، فمنها:

أولاً: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ عائد على آدم عليه السلام.

وهذا مذهب ابن قتيبة والطبري والزجاج والزمخشري وابن الجوزي والرازي والبيضاوي وابن كثير والسيوطي وأبي السعود والألوسي ورشيد رضا والشنقيطي[٥].

---

(١) في معاني القرآن (٣/ ١٢) حيث قال: «وهذا القول خطأ على مذهب أهل النظر من النحويين، ولا يجوز أن تكون ثم بمعنى الواو؛ لاختلاف معنييهما ».

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٢٩٥).

(٣) أبو الحسن سعيد بن مسعدة، المجاشعي ولاءً، النحوي، البلخي، المعروف بالأخفش الأوسط؛ أحد نحاة البصرة، من أئمة العربية، أخذ النحو عن سيبويه، وكان أكبر منه سناً، كانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٨)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٨٠).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ٣٢١)، وانظر: مغني اللبيب(٢/ ٢٢٣)..

(٥) انظر: تأويل مشكل القرآن(ص١٥٢)، جامع البيان(١٠/ ٧٩)، معاني القرآن للزجاج (٢/ ٣٢٢)، الكشاف (٢/ ٨٦)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (ص:١٠٨)، مفاتيح الغيب(١٤/ ٣٣)، أنوار التنزيل (٣/ ٧)، شرح قطر الندى لابن هشام (ص: ٣٠٣)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩١)، شرح الأزهرية (ص: ٣٤)، تفسير الجلالين (ص:١٥١) إرشاد العقل السليم(٣/ ٢١٤)، روح المعاني (٦/ ١١٧)، تفسير المنار (٨/ ٢٩٢)، أضواء البيان(٢/ ٤٦)، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ١٠٩) (٤/ ٤١٩).

وجوزه الواحدي[١].

وعلى هذا القول؛ إنما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم، أو لأنه أبو البشر، فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه.

واحتج الطبري رحمه الله -وتبعه الشنقيطي-[٢] على هذا المعنى بأن الله ذكر الأمر بالسجود لآدم عليه السلام بعد الخلق والتصوير، فهذا يدل على أن المراد آدم؛ وهذا من الإمام حفاظاً على نسق النص.

وهذا يؤكد ضرورة الالتزام بالسياق وعدم ادعاء التقديم والتأخير أو التقدير إلا عند دليل يدل على ذلك.

وعلى هذا؛ فلا إشكال، إذ الأمر بسجود الملائكة لآدم جاء بعد خلق آدم وتصويره.

القول الثاني: أنَّ المراد: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني: آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في ظهره. وثم في الموضعين -على هذا القول وسابقه- على بابها من إفادة الترتيب والمهلة.

وإلى هذا ذهب مجاهد[٣]، واختاره الواحدي[٤].

قال أبو جعفر النحاس: «وهذا أحسن الأقوال، يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود لآدم بعد.

ويقوي هذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

---

(١) الوسيط للواحدي (٢/ ٣٥٢).

(٢) هذا الدليل ذكره غير واحد من المفسرين كدليل لهذا القول، انظر: الكشاف(٢/ ٨٦)، مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣)، فتح القدير (٢/ ١٩١)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٤/ ٣٠٨)، التحرير والتنوير (٨- ب/ ٣٧).

(٣) انظر: تفسير مجاهد(ص٣٣٣)، جامع البيان(١٠/ ٧٨) .

(٤) انظر: الوسيط للواحدي (٢/ ٣٥٢)، الوجيز للواحدي (١/ ٣٨٧).

والحديث: أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق[1]»[2].

ولا إشكال على هذا القول؛ لوقوع السجود بعد الخلق والتصوير، لكن لا نملك دليلاً على كون التصوير واستخراج ذرية آدم من ظهره على هيئة الذر كان قبل الأمر بالسجود لآدم.

وأيضاً: معلوم أن التصوير يعني جعل الشيء على صورة معينة، فهل كان ذلك كذلك في إخراج بني آدم على هيئة الذر؟!!.

هذا ما لا نستطيع الجزم به؛ لعدم الدليل؛ فقصارى ما عندنا أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على هيئة الذر.

نعم، جاء هذا في أثر ضعيف، فقد أخرج أحمد عن أبي بن كعب في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[الأعراف:١٧٢] قال: جمعهم، فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم، فاستنطقهم، فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلي،

---

(١) أخرج الإمام أحمد (٢٤٥٥) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨٩) والنسائي في الكبرى (١٠/ ١٠٢) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠/ ٢٩) والحاكم (١/ ٨٠) والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥١٨) (٢/ ١٤٩) والمقدسي في المختارة (١٠/ ٣٣٨): عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: « **أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان** – يعني عرفة – **فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا** »قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

قال الحاكم (١/ ٨٠) عقب إخراجه: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

وصححه الألباني في الصحيحة(١٦٢٣) وأطال الكلام عليه، فليراجع.

(٢) معاني القرآن للنحاس (٣/ ١٣).

يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي ، قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك فأقروا بذلك[(١)].

القول الثالث: أن الضمير في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ عائد على آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي ذريته، صورناكم في بطون أمهاتكم.

وهذا مروي عن ابن عباس[(٢)].

ومثل هذا القول-في النتيجة-: قول من قال: خلقناكم في أصلاب آبائكم، وصورناكم في أرحام أمهاتكم[(٣)].

فالضمير في ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ و﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ عائد على بني آدم.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند(٥/ ١٣٥) وابن بطة في الإبانة الكبرى (٣/ ٣١٧) والحاكم (٢/ ٣٥٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

وفي إسناد عبد الله محمد بن يعقوب الربالي -بالراء- قال الشيخ شعيب: «لم يؤثر توثيقه عن أحد، وقال الهيثمي عنه في (المجمع) (٧/ ٢٥): مستور».

وقد ضعَّفه ابنُ القيم، ونقل عن شيخه ابن تيمية أيضاً ذلك، وقال في معرض تضعيفه لحديث آفته أبو جعفر الرازي-أحد رواة هذا الحديث، كما عند ابن بطة والحاكم- قال في زاد المعاد(١/ ٢٧٥): « فأبو جعفر، قد ضعفه أحمد وغيره، وقال ابن المديني: كان يخلط، وقال أبو زرعة: كان يهم كثيراً، وقال ابن حبان: كان ينفرد بالمناكير عن المشاهير.

وقال لي شيخنا ابن تيمية قدَّس الله روحه: «وهذا الإسناد نفسه هو إسناد حديث ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف:١٧٢] حديث أبي بن كعب الطويل، وفيه: وكان روحُ عيسى عليه السلام من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهدَ والميثاقَ في زمن آدم، فأَرسلَ تلك الروحَ إلى مريم عليها السلام حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا، فأرسله الله في صورة بشر فتمثل لها بشراً سوياً، قال: فحملت الذي يخاطبها، فدخل من فيها، وهذا غلط محض، فإنَّ الذي أرسل إليها الملك الذي قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[مريم:١٩] ولم يكن الذي خاطبها بهذا هو عيسى بن مريم، هذا محال.

والمقصود أن أبا جعفر الرازي صاحبُ مناكير، لا يَحتج بما تفرد به أحدٌ من أهل الحديث البتة».

(٢) قال النحاس في معاني القرآن (٣/ ١٢): «هذا صحيح عن ابن عباس».

(٣) قاله عكرمة تلميذ ابن عباس، انظر: جامع البيان(١٠/ ٧٧)، الكشف والبيان (٤/ ٢١٨)، زاد المسير (٣/ ١٧٢).

وعلى هذا؛ فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعني: بني آدم، وقد علم جل وعز أنه يخلق ذريته، فهو بمنزلة ما خلق» (١).

وعلى هذا القول وسابقه؛ تكون كلمة (ثم) مفيدة لترتيب خبر على خبر، ولا تفيد الترتيب في الزمان (٢).

والمعنى: ثم صوركم، ثم إنا نخبركم أنا قلنا: للملائكة اسجدوا لآدم.

قال العلامة الشنقيطي: «ولفظة (ثم) قد تأتي في القرآن للترتيب في الذكر، لا لترتيب الحقيقة الواقعة في زمنها، وهذا الأسلوب -وإن كان غير ظاهر- فهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، فمن أمثلته في القرآن: قوله تعالى في الأنعام- يعني شريعة نبينا ﷺ وهو آخر الأنبياء-: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام:١٥٣-١٥٥] وإتيان موسى الكتاب قبل نزول هذا على النبي ﷺ بقرون، فدّل على أنَّ (ثم) هناك ليست للترتيب الزماني، وإنما هي للترتيب الذكري، ونظير ذلك في القرآن قوله في سورة البلد: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١١-١٧] لأنه ليس المراد أنه مثلاً يقتحم العقبة، وأنه يطعم ذا المسغبة، ويفعل كذا وكذا، ثم بعد ذلك يكون من الذين آمنوا، لا، ليس هذا هو المراد، وإنما هي للترتيب الذكري، لا للترتيب الزماني المعروف» (٣).

---

(١) قاله النحاس في معاني القرآن (٣/ ١٣).

(٢) انظر: المحرر الوجيز(٣/ ٥٢٠)، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن (١/ ٥٠٨)، مفاتيح الغيب (١٤ / ٣٣)، لباب التأويل(٢/ ١٨٤)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٦١)، البحر المحيط (٤/ ٢٧٢)، العذب النمير (٣/ ١٠٨).

(٣) العذب النمير (٣/ ١٠٨)، وانظر: مغني اللبيب(٢/ ٢٢٥).

واختار هذا القول القرطبي والشوكاني[١].

قال أبو حيان عن هذا الوجه: «وهذا أسهل محمل في الآية»[٢].

ووجه رابع: زاده الرازي، ولم يسبق إليه، وهو: أن الخلق في اللغة عبارة عن التقدير، فقوله : ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم، وقوله: ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة، فخلق الله عبارة عن حكمه ومشيئته ، والتصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ، ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم، وأمر الملائكة بالسجود له.

قال: «وهذا التأويل عندي أقرب من سائر الوجوه»[٣].

لكن يعترض على هذا القول: بأن التصوير لا يسمى تصويراً بالمعنى الذي ذكره، فالتصوير يكون بإيجاد الشيء في الخارج على صورة معينة، وما ذكره رحمه الله هو التقدير بعينه، الذي هو معنى من معاني الخلق، فليس الخلق مطلق التقدير فقط، ولكنه تقدير الشيء على هيئة معينة.

وأيضاً: أن الخلق وإن كان يأتي بمعنى التقدير، لكن لا يمكن حمله ههنا على التقدير؛ لأن المقام مقام امتنان وإظهار نعمته جل جلاله على العباد، ولاشك أن المنة بالإيجاد أتم وأكمل منها بالتقدير.

وأقوى الأقوال في الآية الكريمة قولان، هما الأول والثالث، وإن كان الأول أقوى-فيما يظهر- والعلم عنده سبحانه وتعالى، ولذلك لما ذكر الشيخ الشنقيطي رحمه الله من كون (ثم) تأتي للترتيب في الذكر أسلوب غير معروف ولا مشتهر، ومن القواعد المرعية

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٦١)، فتح القدير (٢/ ١٩١).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٢٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٣).

عند أهل التأويل: أنَّ الأولى عدم حمل معاني الكتاب العزيز على هذا النحو من المعاني.

فإذا تقرر هذا، تبين أن القول الأول أقوى، وليس فيه إلا استعمال (نا) التعظيم في الخلق والتصوير، وهذا معنى سائغ في اللغة، ومستعمل كثيراً في القرآن الكريم، وقد سبق بيانه في موضعه.

الموضع الثاني عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٩].

قال الإمام البغوي رحمه الله: « فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بَعْدَمَا هَلَكُوا بِالرَّجْفَةِ؟

... وَقِيلَ: فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهَا: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أبلغتكم رسالة رَبِّي فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ »[1].

الدراسة: في هذه الآية الكريمة يتطرق إلى الذهن سؤال، وهو: حينما تولى صالح عليه السلام عن قومه، وخاطبهم، متى كان وقت هذا الخطاب؟

ظاهر الآية الكريمة أنَّ التولي والمخاطبة كانت بعد نزول العذاب بهم، بدليل أن الله لما أخبر عن هلاكهم أعقب بذكر تولي صالح ومخاطبته وربط بين الخبرين بالفاء الدالة على التعقيب.

مما يدل على أن توليه عليه السلام ومخاطبته كانت بعد نزول العذاب بهم.

لكن، يشكل على هذا: أنه كيف يخاطب رمماً جاثية، وأبداناً هامدة؟!!.

(١) معالم التنزيل(٣/ ٢٤٩).

ومن ثم، قال بعض المفسرين تلافياً لهذا الإيراد، وحلاً لهذا الإشكال: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، فيكون التقدير: فتولى عنهم، وقال لهم ما قال، فبعد ذلك نزل بهم العذاب [١].

ويكون التولي ههنا بمعنى الخروج تولياً حقيقياً.

والبعض من المفسرين لم يصرح بالتقديم والتأخير، غير أنَّه اختار أن المخاطبة كانت قبل نزول العذاب، وهذا هو القول بالتقديم والتأخير.

وهكذا صنع الطبري والماتريدي والشوكاني[٢].

وصرح بالتقديم والتأخير مختارا له السمرقندي[٣].

وقدمه السيد رشيد رضا[٤]،ولم يذكر ابن الجوزي سواه- وهذا مستغرب منه[٥].

وذكره صديق حسن خان وابن عاشور احتمالاً في معنى الآية الكريمة[٦].

يقول رشيد رضا مبيناً وجه هذا القول:«وفي هذه الآية أنه تولى عنهم عقب هلاكهم، كما يدل عليه العطف بالفاء، والمعهود في مثل هذا: أن تتقدم هذه الآية على ما قبلها في الذكر، كتقدم مدلولها بالفعل، ولكن عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني؛ لنكت في الكلام، ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة، أو ما يقرب منها في الظهور.

وجعل بعضهم الآيتين هنا من هذا القبيل بناء على أن ما تضمنته الآية من إعذار صالح إلى قومه بإبلاغهم الرسالة ومحضهم النصيحة ، ومن تسجيله عليهم أفن

(١) انظر: لباب التأويل(٢/ ٢٢١).

(٢) انظر: جامع البيان (١٠/ ٣٠٤)، تفسير الماتريدي(٤/ ٤٨٥)، فتح القدير (٢/ ٢٢٠).

(٣) انظر: بحر العلوم (١/ ٥٤٥).

(٤) انظر: تفسير المنار (٨/ ٤٥١).

(٥) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٢٧).

(٦) انظر: فتح البيان (٤/ ٤٠٠)، التحرير والتنوير (٨-ب/ ٢٢٨).

الرأي وفساد الأخلاق بكره الناصحين، وعدم الانتفاع بهم= إنما يكون قبل التولي والانصراف عنهم، أو عنده ولكن في حال حياتهم»[(١)].

ولا يخفى عليك أن ادعاء التقديم والتأخير لا يسلم، ولا يصار إليه إلا ببينة، مع ما في هذا القول من إلغاء عمل الفاء الأصلي، وهو التعقيب.

فكيف المصير إليه بعد هذا؟!!.

وما ذكر من الإشكال فالإجابة عنه ميسورة، وستذكر في وقتها -إن شاء الله تعالى- ولنذكر أقوال أهل العلم في هذا.

فذهب الكثير من المفسرين إلى أن الآية على نسقها، فلا تقديم ولا تأخير.

منهم الواحدي والسمعاني والزمخشري والبيضاوي وأبو حيان وابن كثير وأبو السعود والسعدي والشنقيطي[(٢)].

وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكاية حال ماضية[(٣)].

وعلى هذا؛ يكون خطابه لقومه:

- على سبيل التفجّع عليهم والتحسّر والاغتمام لهم؛ لكونهم لم يؤمنوا، فهلكوا، وفي هذا تخفيف على النفس من ثقل ما أصابها.

- الخطاب ليس خاصاً بهؤلاء الهلكى، بل قاله أيضاً؛ ليسمع من كان معه من المسلمين، فيزدادوا إيماناً وتصديقاً برسالته، وينتهوا عن معصية الله ومعصية نبيه عليه السلام[(٤)].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٥١).

(٢) انظر: الوسيط للواحدي (٢/ ٣٨٥)، البسيط(٩/ ٢١٧)، تفسير السمعاني (٢/ ١٩٥)، الكشاف (٢/ ١١٨)، تفسير ابن كثير(٣/ ٤٤٣)، تفسير السعدي (ص:٢٩٥).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/ ٢٧٠)، إرشاد العقل السليم(٣/ ٢٤٤).

(٤) انظر: أنوار التنزيل (٣/ ٣٧)، البحر المحيط (٤/ ٢٧٠).

- أنه خاطب هؤلاء الهالكين، كما خاطب النبي ﷺ صرعى بدر[١].

وهذا الوجه اعتمده جل من اختار أن المخاطبة كانت بعد نزول العذاب.

قال قتادة رحمه الله: «إن نبي الله صالحاً أسمع قومه كما- والله- أسمع محمدٌ ﷺ قومه»[٢].

وهذا القول هو أرجح القولين، أن المخاطبة كانت بعد هلاك قومه؛ لما أسلفنا أن هذا هو ظاهر القرآن، قال العلامة الشنقيطي: «وهذا الأخيرُ هو ظاهرُ القرآنِ؛ لأَنَّ قوله:﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ مُرَتَّبٌ بالفاءِ على قولِه:﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ والفاء تقتضي التعقيب، فكونه قال لهم هذا بعد أن ماتوا وأصبحوا في دارهم جاثمين هو ظاهر القرآن، وظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا لأمر يجب الرجوع إليه.

وقد وَقَعَ مثلُ هذا من نَبِيِّنَا ﷺ»[٣].

الموضع الثالث عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الأعراف:١٦٠].

قال البغوي رحمه الله: «وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَقَطَّعْنَاهُمْ أَسْبَاطًا أُمَمًا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَالْأَسْبَاطُ الْقَبَائِلُ وَاحِدُهَا سِبْطٌ»[٤].

---

(١) أخرج مسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فسمع عمر بن الخطاب قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون؟ أو أنى يجيبون، وقد جيفوا؟ قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٥/ ١٥١٧).

(٣) العذب النمير (٣/ ٥٣٤)، وانظر: مفاتيح الغيب (١٤/ ١٣٦)، أنوار التنزيل(٣/ ٣٧)، لباب التأويل (٢/ ٢٥٤)، البحر المحيط (٤/ ٢٧٠).

(٤) معالم التنزيل(٣/ ٢٩٢)، وانظر: تفسير السمعاني (٢/ ٢٢٤).

الدراسة:يرى بعض أهل العلم أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وموضعه:﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ مؤخر، وحقه التقديم على ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ ؛ ليكون نسق الآية: وَقَطَّعْنَاهُمْ أَسْبَاطًا أُمَمًا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ.

والسبب في هذا القول: أن ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ جاء على التأنيث، في حين أن ما بعده ﴿أَسْبَاطًا﴾ مذكر، مما يدل على أنه ليس هو المعدود، وإلا لقيل: اثني عشر.

ووجه آخر: أن العدد إذا كان أكثر من عشرة، فمعدوده يكون فرداً لا جمعاً، فلا تقول: عندي اثنتي عشرة نسوة، بل تقول: عندي اثنتي عشرة امرأة.

وهذا يدل على أن﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ليست متعلقة باللفظة السابقة لها، بل بالتقطيع ، فيكون نسق الآية: وَقَطَّعْنَاهُمْ أَسْبَاطًا أُمَمًا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ.

وهذا مذهب الطبري غير أنه لم يصرح بالتقديم والتأخير(١).

ويناقش هذا القول بأنه خلاف الأصل، فلا يلجأ إليه إلا إذا قام الدليل، ولا دليل عليه، ولا حاجة تسوق إليه.

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أنَّ اثنتي عشرة حال، أو مفعول به ثانٍ؛ لأن الفعل قطعناهم بمعنى صيرناهم، وهذا من الأفعال التي تتعدى لمفعولين(٢).

وأما المعدود فمحذوف، تقديره:فرقة، أي:وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة، ويكون على هذا الفعل﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ بمعنى ميزناهم وفرقناهم.

---

(١) قال الطبري في جامع البيان (١٠/ ٥٠٣):«والصواب من القول في ذلك عندي: أن الاثنتى عشرة أنثت لتأنيث القطعة، ومعنى الكلام: وقطعناهم قطعاً اثنتى عشرة، ثم ترجم عن القطع بالأسباط، وغير جائز أن تكون الأسباط مفسرة عن الاثنتى عشرة، وهي جمع؛ لأن التفسير فيما فوق العشر إلى العشرين بالتوحيد لا بالجمع، والأسباط جمع لا واحد...ففي ذلك أن الأسباط ليست بتفسير للاثنتي عشرة، وأن القول في ذلك على ما قلنا».

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن (١/ ٥٩٩)، البحر المحيط (٥/ ١٩٩)، الدر المصون (٥/ ٤٨٥)، العذب النمير (٤/ ٢٤٩).

و﴿أَسۡبَاطًا﴾ بدل من اثنتي عشرة.

وهو اختيار الزجاج ومكي وابن عطية والعكبري وابن هشام النحوي ورشيد رضا[١].

وذهب الزمخشري إلى أن ﴿أَسۡبَاطًا﴾ تمييز، مخالفاً بهذا جل المفسرين، بل لم أر من ذهب إلى مذهبه هذا، ثم إنه أبدى علة هذا القول، فقال: «فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعا؟ وهلا قيل: اثنى عشر سبطا؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً؛ لأن المراد: وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة»[٢].

وذكره الشوكاني احتمالاً في إعراب اللفظة[٣].

وقد انْتُقِد قول الزمخشري: (كل قبيلة أسباط)؛ لأن الأسباط هم أبناء يعقوب عليه السلام[٤]، قال أبو حيان: «وما ذهب إليه من أن كل قبيلة أسباط خلاف ما ذكر الناس، ذكروا أن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وقالوا: الأسباط جمع سبط، وهم الفرق، والأسباط من ولد إسحاق بمنزلة القبائل من ولد إسماعيل، ويكون على زعمه قوله تعالى:﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦] معناه القبيلة»[٥].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٨٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٥٩٤)، المحرر الوجيز (٤/ ٦٧)، مفاتيح الغيب (١٥/ ٣٨٨)، التبيان في إعراب القرآن (١/ ٥٩٩)، شرح شذور الذهب لابن هشام (ص: ٦٠١)، تفسير المنار (٩/ ٣٠٨).

(٢) الكشاف (٢/ ١٦٨).

(٣) انظر: فتح القدير (٢/ ٢٩١).

(٤) انظر: معالم التنزيل(١/ ١٥٦)، زاد المسير (١/ ١١٦)، لباب التأويل(١/ ٨٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٩).

(٥) البحر المحيط (٥/ ١٩٩)، وانظر: الدر المصون (٥/ ٤٨٥)، العذب النمير (٤/ ٢٤٩).

و ﴿أُمَمًا﴾: نعت لأسباط أو بدل بعد بدل[1]، قال العلامة الشنقيطي: «ولا مانع من إتيان البدل بعد البدل، كما هو معروف في علم العربية، فقد وُجد في كلام العرب»[2].

وكونها نعتاً لأسباط مذهب الزجاج ومكي والنحاس[3].

وأما كونها بدلاً من اثنتي عشرة، فهو مذهب الزمخشري والألوسي، وجائز أن تكون بدلاً من ﴿أَسْبَاطًا﴾[4].

وجوز أبو البقاء العكبري كونها نعتاً أو بدلاً [5].

وذهب الفراء إلى أنها تمييز اثنتي عشرة، فقال: «قال: اثنتي عشرة، والسبط ذكر؛ لأن بعده أمم، فذهب التأنيث إلى الأمم»[6].

فهؤلاء متفقون-كما ترى- على أن أسباطا ليس تمييزا للعدد، والأكثر على أنه محذوف تقديره فرقة، وذهب الفراء إلى أنه ﴿ أُمَمًا﴾.

وقد عزا الشنقيطي إلى المحققين في هاتين الكلمتين أن الْمُمَيَّز محذوف دل المقام عليه : وقطعناهم اثْنَتَيْ عشرة فِرْقَةً، وقوله:﴿أَسْبَاطًا﴾بدل من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾، و﴿أُمَمًا﴾ بدل بعد بدل على الصواب.

---

(١) انظر: الجدول في إعراب القرآن (٩/ ١٠٠)، المجتبى من مشكل إعراب القرآن (١/ ٣٤٨).

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤/ ٢٤٩).

انظر: المجتبى من مشكل إعراب القرآن (١/ ٣٤٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٣٨٣)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٥٩٤)، إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٧٦).

(٤) انظر: الكشاف (٢/ ١٦٩)، روح المعاني(٩/ ٨٨)، التحرير والتنوير (٩/ ١٤٣).

(٥) التبيان في إعراب القرآن (١/ ٥٩٩).

(٦) معاني القرآن للفراء (١/ ٣٩٧)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٥٩٥).

وهذه الأقوال متقاربة تتفق على أن الآية على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير، كما أن فيها بيانا وردا لما ادعاه أعداء الدين من الخطأ في كتاب الله تعالى في هذه الآية الكريمة، حيث زعموا أن المعدود مذكر، والعدد (اثنتي عشرة) مؤنث، وهذا مخالف لقواعد العربية، هكذا زعم أولئك الأفاكون.

ورد عليهم علماء الإسلام بما سبق ذكره[١].

الموضع الرابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يَقُولُ: لِكُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللهُ كِتَابٌ قَدْ كَتَبَهُ فِيهِ، وَوَقْتٌ يَقَعُ فِيهِ.

وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: أَيْ، لِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ، أَيِ: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَقْتٌ يَنْزِلُ فِيهِ»[٢].

الدراسة: اختلف أهل العلم في معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨] على أقوالٍ ثلاثة، أحدها: القول بالتقديم والتأخير، أي أنَّ كلمة أجل حقها التأخير، فيكون نسق الآية: لكل كتابٍ من الكتب المنزلة على الأنبياء والمرسلين أجل، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه.

وهو قول الضحاك[٣] وإليه ذهب الفراء[٤].

---

(١) انظر: عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين(ص: ٢٨)، القرآن ونقض مطاعن الرهبان (١/ ١٤٤، ٣٥٠)، رد البهتان عن إعراب آيات من القرآن الكريم (ص:٨١).

(٢) معالم التنزيل(٤/ ٣٢٤)، وانظر هذا القول في تأويلات أهل السنة (٦/ ٥١)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٧٥٢)، النكت والعيون (٣/ ١١٧)،تفسير السمعاني (٣/ ٩٩)، زاد المسير (٢/ ٤٩٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٣/ ٥٥٩)، وعزاه في الدر المنثور (٨/ ٤٦٦) لأبي الشيخ.

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٥)، المحرر الوجيز (٥/ ١١)، زاد المسير (٢/ ٤٩٩).

وذكره الماوردي مقدماً له[١].

وحكاه ابن جرير ممرضاً له[٢].

وعلى هذا؛ فالآية الكريمة نظير قول الله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، وكان أبو بكر ﷺ يقرؤها: «وجاءت سكرة الحق بالموت»[٣].

وهذا القول على خلاف الأصل، لما سبق وأن ذكرنا أنَّ القول بالتقديم والتأخير خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا بدليل.

وقد انتقد بعض العلماء هذا القول، ولم يرتضوه، قال أبو حيان: «ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا، فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس، ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه، إذ ثَمَّ أشياء كتبها الله تعالى أزلية كالجنة ونعيم أهلها، لا أجل لها»[٤].

وكذا لم يرتضه ابن عطية وابن جزي[٥].

وفي الآية قولان آخران، يجتمعان في أن الآية الكريمة على نسقها، أما أولهما:

فمعنى الآية الكريمة: أن لكل أجل من آجال الدنيا، وأمر وقضاء كتاب مكتوب، لا يزاد عليه، ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر.

وهذا اختيار ابن جرير الطبري والسمرقندي والثعلبي ومكي والواحدي والبغوي وابن عطية والبيضاوي وابن كثير والشوكاني والقاسمي والسعدي وابن عاشور[٦].

---

(١) انظر: النكت والعيون (٣/ ١١٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١٣/ ٥٥٩).

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٦٥)، جامع البيان (١٣/ ٥٥٩).

(٤) البحر المحيط (٦/ ٣٩٧).

(٥) انظر: المحرر الوجيز (٥/ ١١)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٠٦).

(٦) انظر: جامع البيان (١٣/ ٥٥٩)، بحر العلوم (٢/ ٢٣٠)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٧٥٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ١٩)، الوجيز للواحدي (ص: ٥٧٥)، معالم التنزيل(٤/ ٣٢٤)، المحرر الوجيز=

وهذا المعنى يؤيده ما استقر عند أهل الإسلام، ودلت عليه الأدلة الكثيرة أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، قال تعالى:﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣] . وقال تعالى: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[الحج:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد:٢٢].

والقول الثاني: قول الحسن البصري: لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله[(١)].

وهذا لا يخالف القول السابق، فهو داخل فيه، فالأول عام في كل أجل مضروب لأمر، وهذا القول في شيء معين من الآجال.

وكأنَّ الحسن البصري رحمه الله أراد بيان المعنى العام بذكر بعض أفراده، على طريقة السلف في البيان .

والراجح إن شاء الله تعالى أن الآية الكريمة على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير؛ لأن هذا هو الأصل، ومن قال بخلافه، فقد خالف الأصل الذي يجب أن يكون عليه في تأويل كلام ربنا تبارك وتعالى.

ثم الآية عامة، فهي في كل الآجال، لا يخص أجل منها دون أجل، فكلها مكتوبة ومثبتة في كتاب عند ربنا جل وعلا.

=(٥/ ١١) ، أنوار التنزيل (٣/ ١٩٠)، جامع البيان للإيجي (٢/ ٢٧٩)، فتح القدير (٣/ ١٠٥)، محاسن التأويل (٦/ ٢٩٠)، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤١٩)، التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٤).

(١) انظر: انظر: النكت والعيون (٣/ ١١٧)، زاد المسير (٢/ ٤٩٩).

قال ابن عطية: «وقوله:﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة[(١)]».

الموضع الخامس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧].

قال البغوي رحمه الله: «﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بِالنَّصْرِ لِأَوْلِيَائِهِ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ رُسُلِهِ وَعْدَهُ»[(٢)].

الدراسة: يرى الإمام البغوي رحمه الله أن الآية على التقديم والتأخير، كما هو نص كلامه، ووافقه على هذا الرأي جمع من العلماء، منهم: ابن قتيبة والطبري والثعلبي ومكي والقرطبي والنسفي والخازن[(٣)].

ولم أر من أهل العلم من ذكر غير هذا.

ويبين جمع من أهل العلم حكمة تقديم﴿وَعْدِهِ﴾ على ﴿رُسُلَهُ﴾، وكلهم -فيما رأيت- آخذ لهذه الفائدة من الزمخشري، قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟

قلت: قدم الوعد؛ ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، كقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]، ثم قال:﴿رُسُلَهُ﴾؛ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً -وليس من شأنه إخلاف المواعيد- كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟!»[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١١).

(٢) معالم التنزيل (٤/ ٣٦١).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص: ١٢٦)، جامع البيان (١٣/ ٧٢٧)، الكشف والبيان (٥/ ٣٢٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٨٤٣)، الجامع لأحكام القرآن(١٢/ ١٦٧)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ١٨٠)، لباب التأويل (٣/ ٤٥).

(٤) الكشاف (٢/ ٥٦٦)، وانظر: مفاتيح الغيب (١٩/ ١١١)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٠٣)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ١٨٠)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤١٤).

وقد تعقب هذا الكلام من جهتين، هما:

أولهما: أن الفعل ليس على إطلاقه كما قال، بل هو مقيد بالمفعول، قال ابن المُنَيِّر[١]: «وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي، من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية؛ لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على ألسنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد.

وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولابد»[٢].

وتعقب هذا التعقب بأنه لابد للتقديم من فائدة، ومحال أن تتقدم لفظة حقها التأخير، ثم لا تفيد شيئاً، ولا تكسب الجملة زيادة في المعنى، وما ذكره الزمخشري هو القاعدة عند أهل البيان، كما قال الشيخ عبد القاهر[٣] في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[الأنعام:١٠٠] أنه قدم شُرَكاءَ للإيذان بأنه لا ينبغي أن يتخذ لله تعالى شركاء مطلقاً، ثم ذكر «الجن» تحقيراً، أي: إذا لم يتخذ من غير الجن، فالجنُّ أحق بألا يتخذوا[٤].

---

(١) أبو العباس، أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم الإسكندري، ناصر الدين ابن المنير(بضم الميم وفتح النون، ثم مثناة تحتية مشددة مكسورة)، كان إماماً بارعاً في علوم كثيرة، وله مصنفات مفيدة وتفسير نفيس، ولد سنة(٦٢٠)، وتوفي سنة(٦٨٣).

انظر: (فوات الوفيات) (١/ ١٨٥)، (طبقات المفسرين) للأدنه وي(١/ ٢٥٢).

(٢) الإنصاف(٣/ ٣٩٣-حاشية على الكشاف).

(٣) أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، شيخ العربية، كان آية في النحو، شافعي المذهب، أَشعرِيّ المعتقد، ذا نسكٍ ودين، قالَ السِّلَفي: كان ورعا قانعا، دخل عليه لص، فأخذ ما وجد، وهو ينظر، وهو في الصلاة فما قطعها ، توفي: سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٣٢).

(٤) انظر: دلائل الإعجاز (ص: ٢٨٦)، روح المعاني (٧/ ٢٣٨).

وثانيهما: أن هذا من اعتزاليات الزمخشري، قال أبو حيان: «وهو جواب على طريقة الاعتزال في أنَّ وعد الله واقع لا محالة، فمن وعده بالنار من العصاة لا يجوز أن يغفر له أصلاً.

ومذهب أهل السنة: أن كل ما وعد من العذاب للعصاة المؤمنين هو مشروط إنفاذه بالمشيئة» (١).

وهذا النقد أيضاً غير مسلم؛ لأنَّ الآية في الوعد، وليست في الوعيد، وفرق بينهما، فالله لا يخلف وعده، أما وعيده فقد يتخلف إذا شاء ﷻ.

وخلاف المعتزلة في الوعيد للعصاة.

ولعل ما ذكره الزمخشري هو الوجه، والله أعلم، والآية على ما ذكر البغوي من التقديم والتأخير. والله تعالى أعلم.

الموضع السادس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٨].

قال البغوي رحمه الله: «قَالَ الْكِسَائِيُّ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، مَجَازُهُ: لَكِنَّ اللهَّ هُوَ رَبِّي» (٢).

الدراسة: يرى الكسائي -فيما نسب إليه الإمام البغوي وغيره- أن الآية الكريمة على التقديم والتأخير، وتقديرها: لكن الله هو ربي.

ويبدو أنَّ الكسائي رأى أن الضمير يعود على مذكورٍ سابقٍ أولى.

فلعل هذا هو الوجه.

ويناقش هذا الرأي بما سبق وأن أكدناه من أن القول بالتقديم والتأخير لا يلجأ إليه إلا عند عدم إمكانية القول بكون الجملة على نسقها، وهذا غير كائن ههنا.

---

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٥٦).

(٢) معالم التنزيل (٥/ ١٧٢)، وانظر: الكشف والبيان (٦/ ١٧١)، الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٧٧).

ولهذا، فلم نرَ من تبنى قول الكسائي، وذهب إليه، بل الأغلب منهم على أنَّ الجملة على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير، ويكون المعنى:

لكن أنا هو الله ربي، ولا أشرك بربي أحداً.

وبعضهم قدر كلمة (أقول)، كابن جرير والسمرقندي ومكي[(١)]:

ولكن أنا أقول: هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً.

وعلى هذا المذهب المذكور من كون الآية على نسقها: أبو عبيدة والطبري والسمرقندي ومكي والواحدي والكرماني والبغوي والبيضاوي والنسفي وابن جزي وابن عاشور والشنقيطي[(٢)].

ويؤيد هذا القول قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب والحسن:(لكن أنا هو الله ربي)[(٣)].

وأصل ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ لكن أنا، فحذفت الهمزة، وألقيت حركتها على نون (لكن)، فاجتمعت النونان، فأدغمت نون (لكن) في النون التي بعدها.

وعزاه الرازي لأهل اللغة[(٤)].

قال السمين الحلبي عن هذا الوجه: «وهذا أحسنُ الوجهين في تخريجِ هذا»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٦٤)، وانظر: بحر العلوم (٢/ ٣٤٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٨٤)، البحر المحيط (٧/ ١٧٩).

(٢) انظر: مجاز القرآن (١/ ٤٠٣)، جامع البيان (١٥/ ٢٦٤)، بحر العلوم (٢/ ٣٤٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٣٨٤)، الوسيط للواحدي (٣/ ١٤٩)، غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٦٠)، معالم التنزيل(٥/ ١٧٢)، المحرر الوجيز(٥/ ٦٠٩)، أنوار التنزيل (٣/ ٢٨١)، مدارك التنزيل للنسفي (٢/ ٣٠١)، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٦٦)، التحرير والتنوير(١٥/ ٣٢٢)، أضواء البيان (٤/ ١٣٥).

(٣) انظر: المحرر الوجيز(٥/ ٦٠٩) أنوار التنزيل (٣/ ٢٨١)، الدر المصون (٧/ ٤٩٣).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٤).

(٥) الدر المصون (٧/ ٤٩١)، وانظر: الكشف والبيان (٦/ ١٧١)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ٦٣)، اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٤٨٩)، فتح القدير (٣/ ٣٣٩)، التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٢)، أضواء البيان (٣/ ٢٧٧).

و﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ استدراك لقوله:﴿أَكَفَرْتَ﴾ [الكهف: ٣٧] كأنه قال لأخيه: أكفرت بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكنْ عمرو حاضر[(١)].

وعلى كلٍ، فلا نخرج عما نحن بصدده، فالآية الكريمة على نسقها، ليس فيها تقديمٌ ولا تأخيرٌ.

و(هُوَ) ضمير الشأن، و ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ خبر ومبتدأ[(٢)].

الموضع السابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء:٣].

قال البغوي رحمه الله:«قَوْلُهُ: ﴿وَأَسَرُّوا﴾ فِعْلٌ تَقَدَّمَ الْجَمْعَ، وَكَانَ حَقُّهُ وَأَسَرَّ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَرَادَ: وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَسَرُّوا النجوى»[(٣)].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٤)، أنوار التنزيل (٣/ ٢٨١)، مدارك التنزيل للنسفي (٢/ ٣٠١)، البحر المحيط (٧/ ١٧٨)، الدر المصون (٧/ ٤٩٤)، محاسن التأويل (٧/ ٣٤).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/ ٤٦٤)، أنوار التنزيل (٣/ ٢٨١)، مدارك التنزيل للنسفي (٢/ ٣٠١)، البحر المحيط (٧/ ١٧٩)، اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٤٨٩)، التحرير والتنوير (١٥/ ٣٢٣)، إعراب القرآن وبيانه (٥/ ٦٠١).

(٣) معالم التنزيل (٥/ ٣١٠)، وكذا عزا هذا القول للكسائي الثعلبي في الكشف والبيان (٦/ ٢٦٩)، والقرطبي في الجامع(١٤/ ١٧٥)، وأبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٤٠٨)، والشوكاني في فتح القدير (٣/ ٤٧٠).

بينما عزا له ابن عطية في المحرر(٦/ ١٥٢) قولاً آخر، وهو أن الواو في ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ فاعل و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل.

ولما ذكر الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ١٢-١٥) الأقوال وليس منها القول بالتقديم والتأخير في الآية الكريمة، قال: «وما ذكرنا من الوجوه في إعراب ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قول الفراء والزجاج والكسائي والمبرد».

فهذا يجعلنا في شك من نسبة القول المذكور للكسائي، ولعله لهذا، قال السمين الحلبي في الدر المصون في (٨/ ١٣٣): (ويُعْزَى للكسائي) هكذا بصيغة التمريض.

الدراسة: عزا البغوي رحمه الله لإمام النحو الكسائي القول بالتقديم والتأخير في الآية الكريمة ؛ ليكون المعنى: والذين ظلموا أسروا النجوى.

والسِرُّ في هذا، هو ما يشكل على البعض من أنَّ الآية الكريمة قد ذكر فيها الفاعل ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، وهو الواو، ثم ذكر الفاعل مرة أخرى، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، ومعلوم أن الفاعل واحد!!.

ومن هنا؛ فقد جاءت كلمات العلماء لدفع هذا الإشكال، ومنها ما عزاه البغوي للكسائي من القول المذكور آنفاً.

وعلى هذا القول يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ مؤخر، وخبره جملة: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾[(١)].

هذا قولٌ، وهو وجيه في توجيه هذه الجملة القرآنية، لكنه مخالف للأصل الذي دائماً نبدي عليه ونعيد، وهو الأصل في الكلام عدم التقديم والتأخير.

ولنرى الأقوال الأخرى في توجيه إعراب الكلمة المذكورة، فقد ذكر أهل العلم أقوالاً عدة كلها تتفق على عدم التقديم والتأخير في الآية الكريمة، وإليك هي[(٢)]:

أولها: أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلاً من الواو في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾.

وقدمه الطبري والواحدي والبيضاوي والنسفي وأبو السعود[(٣)].

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٤٠٨):«أو على أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ خبره، قاله الكسائي، فقدم عليه، والمعنى: وهؤلاء أسروا النجوى، فوضع المظهر موضع المضمر؛ تسجيلاً على فعلهم أنه ظلم».

(٢) انظرها في: جامع البيان (١٦/ ٢٢٣)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٨٣)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ١٤٠)، الكشف والبيان (٦/ ٢٧٠)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٧٢٨)، مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ٤٧٧)، التفسير البسيط(١٥/ ١٢)، النكت في القرآن الكريم (ص: ٣٢٧)، المحرر الوجيز(٦/ ١٥٢)، إعراب القرآن للأصبهاني (ص: ٢٣٧)، مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٠)، التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٩١١)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ١٧٤)، أنوار التنزيل (٤/ ٤٥)، مدارك التنزيل (٢/ ٣٩٤)، البحر المحيط (٧/ ٤٠٨)، الدر المصون (٨/ ١٣٢)، اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٤٤٧).

(٣) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٢٣)، التفسير البسيط(١٥/ ١٢)، أنوار التنزيل (٤/ ٤٥)، مدارك التنزيل (٢/ ٣٩٤)، إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٤).

وقال الزجاج عن هذا القول: إنه أجودهما[1].

واختاره مكي والواحدي وابن الجوزي والرازي والقرطبي وابن جزي وابن عاشور والشنقيطي[2].

ونسبه ابن عطية[3] لسيبويه.

وعلى هذا القول؛ لا يوقف على ﴿ٱلنَّجْوَى﴾.

ثانيها: أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعلاً، والواو في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ علامة للجمع لا اسم، تشبيهاً بعلامة التأنيث، كما تقول: ذهبت جاريتك، فالتاء في الفعل مجرد علامة.

والوقف أيضاً لا يكون على كلمة ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ لأنه لا يفصل بين الفعل وفاعله.

وهذا القول مبني على لغة: أكلوني البراغيث، وضربوني قومك، وهي لغة مستعملة، وجاءت عليها بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية[4].

وإليه ذهب أبو عبيدة والأخفش[5].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٨٣).

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ٤٧٧)، الوسيط للواحدي (٣/ ٢٢٩)، زاد المسير (٣/ ١٨٥)، مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٠)، الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ١٧٤)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٨)، التحرير والتنوير (١٧/ ١٢)، أضواء البيان (٤/ ٦٩٢).

(٣) في المحرر(٦/ ١٥٢).

(٤) قال الثعلبي في الكشف والبيان (٦/ ٢٧٠):«قال قطرب: وهذا سائغ في كلام العرب، وحكي عن بعضهم أنه قال: سمعت بعض العرب يقول: أكلوني البراغيث، قال الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾.

وقال الشاعر: بك نال النصال دون المساعي ... فاهتدين النبال للأغراض» أ.هـ .

وانظر: فقه اللغة وسر العربية (ص: ٢٢٦)، المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب (ص: ٣٠٦)، حيث قال بعد انتصاره لصحة هذه اللغة: «وقد بقيت هذه الظاهرة شائعة في كثير من اللهجات العربية الحديثة، كقولنا مثلا: (ظلموني الناس)، و(لاموني العوازل)، و(زارونا الجيران)، و(تنو صاحي لحد ما رجعوا العيال من بره)، وهذا كله امتداد للأصل السامي واللهجات القديمة.

(٥) انظر: مجاز القرآن (٢/ ٣٤)، معانى القرآن للأخفش (٢/ ٤٤٧). =

قال القرطبي: «وهو حسن»[١].

لكن هذه اللغة ضعفها بعض أهل العلم، قال الرازي: «أكثر النحويين أنكروا هذا القول؛ لاتفاق الأكثرين على أن قوله: أكلوني البراغيث، وأمثالها لغة ركيكة والله أعلم» [٢].

ونقل أبو حيان[٣] عن الأستاذ ابن عصفور[٤] أنها لغة ضعيفة.

وقال السمين الحلبي عنها: إنها لغة ضعيفة لا نبالي بها[٥].

وعلى صحة هذه اللغة، فلا شك أنها لغة قليلة، لا ينبغي حمل القرآن عليها، وهذا ما أرشد إليه أبو حيان[٦].

قال المبرد[٧]: الذي قالوه يجوز، ولكنه بعيد، لا يختار في القرآن[٨].

= وقد عزاه لهما غير واحد، – ابن عطية عزاه لأبي عبيدة– وفي هذا العزو نظر بين، إذ لا نجد لهما اختياراً واضحاً لهذا القول، بل إن أبا عبيدة قد حكى هذا القول عن قوم، فقال: وقال آخرون، ثم ذكره.
فنسبته لأبي عبيدة خطأ بين.
وأما الأخفش، فالذي في معاني القرآن ذكر القول كاحتمال وارد في الآية الكريمة، ولم يجزم به، بل قدم عليه قولاً آخر، سيأتي، فنسبة القول الآخر له أولى.

(١) الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ١٧٤)، وانظر: البحر المحيط (٧/ ٤٠٨)

(٢) مفاتيح الغيب (٨/ ٣٣١)، قاله ﷺ عند الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ الآية: [آل عمران:١١٣].

(٣) البحر المحيط (٧/ ٢٩٩).

(٤) ابن عُصْفور: عليّ بن مؤمن بن محمد بن عليّ، أبو الحسن الحضرمي، الإشبيلي، حامل لواء العربية بالأندلس، إمام النحو، لا يُشَقُّ غُباره، ولا يُجارى، كان أصبر النّاس على المطالعة، لا يملّ من ذلك، ولم يكن بذلك الورع في دينه، مات بتونس في الرَّابع والعشرين من ذي القعدة، سنة تسع وستين وستمائة.
انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام (١٥/ ١٧٣)، فوات الوفيات (٣/ ١٠٩).

(٥) الدر المصون (٤/ ٣٧٢).

(٦) البحر المحيط (٧/ ٢٩٩)، وانظر اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ١٤٦).

(٧) المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير أبو العباس، الأزدي، شيخ أهل النحو، وحافظ علم العربية، كان عالماً فاضلاً، موثوقاً به في الرواية، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر، من تآليفه المشهورة: الكامل، توفي سنة خمس وثمانين ومائتين.
انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٤/ ٦٠٣)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٧٦)، بغية الوعاة (١/ ٢٦٩).

(٨) انظر: التفسير البسيط(١٥/ ١٤).

ثالثها: أن يكون مبتدأ، والخبر ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ والتقدير يقولون: هل هذا؟.

رابعها: أن يكون خبر مبتدأ محذوفاً، أي: هم الذين ظلموا.

وهذا يفيد ذم الله ﷻ لهم، كما في قوله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧].

وهذا الوجه ذهب إليه الأخفش[(١)]، وذكره الطبري احتمالاً،وجوزه الزجاج[(٢)].

خامسها: أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرفوعاً بفعلٍ مقدرٍ، تقديره: يقولُ الذين.

واختاره النحاس، قال: «وحذف القول مثل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] فالدليل على صحّة هذا الجواب أنّ بعده ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:٣] فهذا الذي قالوه، والمعنى: هل هذا إلّا بشر مثلكم»[(٣)].

وهذه الأوجه تشترك في أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مرفوع.

ووجه سادس: أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ منصوب بفعل مقدر: أعني.

وجوزه الزجاج[(٤)]، وضعفه ابن عطية[(٥)].

ولعل السبب: أن الأصل عدم التقدير.

ووجه سابع: أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مجرور على أنه نعت للناس أو بدل في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:١]،والمعنى على هذا القول: اقترب للناس الذين ظلموا.

وإليه ذهب الفراء[(٦)]، وقدمه الطبري[(٧)].

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤٤٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٢٣)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٨٣).

(٣) إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٤٦).

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٣٨٣).

(٥) انظر: المحرر الوجيز(٦/ ١٥٢).

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ١٩٨).

(٧) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٢٣).

وضعفه ابن عطية[١]، وقال أبو حيان: وهو أبعد الأقوال»[٢].

قال السمين الحلبي: «ويعزى هذا للفراء، وفيه بعد »[٣].

وسبب بعده الفصل بين البدل والمبدل، أو النعت والمنعوت.

ولعل أرجح هذه الأقوال -والعلم عند الله تعالى- هو ما ذهب إليه الكثيرون من أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من الواو في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ وهذا الوجه لا يحتاج إلى تقدير، ولا إلى تقديم وتأخير مع وضوح المعنى وسهولته على هذا القول.

الموضع الثامن عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٣] .

قال الإمام البغوي رحمه الله :«﴿ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِنَا تَمْنَعُهُمْ »[٤].

الدراسة: يرى الإمام البغوي رحمه الله أن الآية الكريمة على التقديم والتأخير، ليكون معناها : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم، فتكون ﴿مِّن دُونِنَا﴾ متعلقة بـ﴿ءَالِهَةٌ﴾، وليس بـ﴿تَمْنَعُهُم﴾.

ومن أول من قال بهذا ابن عباس[٥]، ومقاتل بن سليمان[٦]. واختاره الطبري والماتريدي والواحدي وابن الجوزي والخازن والقاسمي والشنقيطي[٧].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز(٦/ ١٥٢).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٠٨).

(٣) الدر المصون(٨/ ١٣٣).

(٤) معالم التنزيل(٥/ ٣٢٠).

(٥) عزاه إليه أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٤٣٣) والسمين الحلبي في الدر المصون (٨/ ١٦١) وابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٥٠٧).

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٨١).

(٧) انظر: جامع البيان (١٦/ ٢٧٩)، تأويلات أهل السنة (٧/ ٣٤٧)، التفسير البسيط(١٥/ ٨٤)، الوسيط للواحدي (٣/ ٢٣٨)، زاد المسير(٣/ ١٩٢)، لباب التأويل (٣/ ٢٢٦)، محاسن التأويل (٧/ ١٩٦)، أضواء البيان (٤/ ٧٢٤).

يؤيد هذا القول مجيء آياتٍ قرآنيةٍ على هذا المعنى، كقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾الآية [الأنبياء:٢٩] وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾الآية[الفرقان:٣] إلى غير ذلك من الآيات.

أفاده العلامة الشنقيطي[(١)].

ويناقش هذا القول بأنه مخالف للأصل المتقرر عند العلماء، من أن الأصل عدم التقديم والتأخير، ثم مجيء آيات على هذا النسق لا يعني ترجيح هذا القول.

ولم ير جمع من أهل العلم هذا الرأي، بل رأوا أنَّ الآية الكريمة على نسقها، وأن ﴿مِّن دُونِنَا﴾متعلقة بـ ﴿تَمْنَعُهُم﴾ وليس بـ﴿ءَالِهَةٌ﴾.

ومن هؤلاء: يحيى بن سلام والسمرقندي وابن أبي زمنين ومكي والسمعاني وابن عطية والرازي والقرطبي والبيضاوي والنسفي وابن جزي والشوكاني[(٢)].

قالوا: المعنى: تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا، يعني: من عذابنا[(٣)].

ويترجح هذا القول بأن حمل المعاني على التأسيس أولى من حملها على التأكيد.

كما أنه لا ينتقد بمخالفته للأصل، كما في القول السابق؛ لهذا فالراجح -إن شاء الله تعالى- القول الثاني. والله تعالى أعلم.

الموضع التاسع عشر: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٩٧].

---

(١) انظر: أضواء البيان(٤/ ٧٢٤).

(٢) انظر: تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣١٥)، بحر العلوم (٢/ ٤٢٧) ، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ١٤٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٧٥٩)، تفسير السمعاني (٣/ ٣٨٢)، المحرر الوجيز (٦/ ١٧١)، مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٤٧)، الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ٢٠٨)، أنوار التنزيل (٤/ ٥٢)، مدارك التنزيل (٢/ ٤٠٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٣)، فتح القدير (٣/ ٤٨٣).

(٣) انظر: بحر العلوم (٢/ ٤٢٧)، الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ٢٠٨)، أنوار التنزيل (٤/ ٥٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٣).

قال الإمام البغوي رحمه الله: «وَفِي قَوْلِهِ (هِيَ) ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ أَظْهَرَ الْأَبْصَارَ بَيَانًا، معناه: فإذا الْأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

وَالثَّانِي: أَنَّ (هِيَ) تَكُونُ عِمَادًا[1] كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج:٤٦].

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ تَمَامُ الْكَلَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ: (هِيَ)، عَلَى مَعْنَى: فَإِذَا هِيَ بَارِزَةٌ، يَعْنِي مِنْ قُرْبِهَا، كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ، ثُمَّ ابْتَدَأَ: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عَلَى تَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، مَجَازُهَا: أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شَاخِصَةٌ»[2].

الدراسة: اختلف المفسرون في معنى ﴿هِىَ﴾ على أقوال، وكان منها ما حكاه البغوي رحمه الله، ولم يذكر قائله، من أن الآية على التقديم والتأخير، وبيانه: أن في الآية وقفاً على ﴿هِىَ﴾ حيث تم الكلام عندها، ثم ابتدأت جملة جديدة: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهذا هو موضع التقديم والتأخير، قدمت ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ وهي الخبر على ﴿أَبْصَٰرُ﴾ وهي المبتدأ، ونسق الجملة: أبصار الذين كفروا شاخصة.

ويلاحظ على هذا القول أمران اثنان، هما:

- زعم أربابه أن في الآية تقديراً، ومحله بعد ﴿هِىَ﴾؛ حيث إنَّهم يرون أنَّ الجملة تمت، ولا تتم إلا بتقدير؛ لهذا قالوا: المعنى: واقترب الوعد الحق فإذا هي بارزة، أي: الساعة.

التقديم والتأخير في الآية.

وكلا الأمرين خلاف الأصل.

---

(١) أي: ضميرَ فصلٍ.

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٣٥٥)، وانظر: الكشف والبيان (٦/ ٣٠٩)، زاد المسير (٣/ ٢١٣)، الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ٢٩٠)، البحر المحيط(٧/ ٤٦٨)، الدر المصون (٨/ ٢٠٤)، اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٦٠٣)، فتح القدير (٣/ ٥٠٤).

ولهذا؛ فقد انتقده أبو حيان وغيره، قال أبو حيان: «وهذا وجه متكلف متنافر التركيب»[(١)].

وفي الآية قولٌ آخر، يتفق مع القول السابق في التقديم والتأخير، وفي موضعه أيضاً، لكنه يخالفه في الوقف وفي التقدير، ومفاد هذا القول:

أنّ ﴿هِيَ﴾ضمير القصة، كأنه قيل: فإذا القصة والحادثة أبصار الذين كفروا شاخصة.

قال السمين الحلبي:«وهوالأجود أن تكونَ﴿هِيَ﴾ضميرَ القصة، و﴿شَٰخِصَةٌ﴾ خبرٌ مقدمٌ، و ﴿أَبۡصَٰرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملةُ خبرٌ لـ ﴿هِيَ﴾؛ لأنها لا تُفَسَّر إلاَّ بجملةٍ مصرِّحٍ بجزأيها، وهذا مذهبُ البصريين»[(٢)].

واختار هذا القول: الواحدي والجلال المحلي والألوسي وابن عاشور[(٣)].

وقدمه البيضاوي وأبو السعود والشوكاني[(٤)].

ونسبه ابن عطية والرازي إلى سيبويه[(٥)].

ويؤخذ على هذا القول بالتقديم والتأخير؛ إذ أنه خلاف الأصل-كما هو معلوم-.

وذهب آخرون إلى التقديم والتأخير أيضاً، لكنهم رأوا أنَّ ﴿هِيَ﴾ ضمير فصل أو عماد، وجاء التأنيث للضمير؛ لأن الأبصار مؤنثة، ويجوز التذكير للعماد[(٦)].

وأنشدوا:

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٦٨)، وانظر: الدر المصون (٨/ ٢٠٤)، اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٦٠٣).

(٢) الدر المصون (٨/ ٢٠٤)، وانظر: البحر المحيط (٧/ ٤٦٨)،

(٣) انظر: التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٥٢)، تفسير الجلالين (ص:٤٣٠)، روح المعاني (٩/ ٨٨)، التحرير والتنوير (١٧/ ١٥١).

(٤) انظر: أنوار التنزيل (٤/ ٦٠)، إرشاد العقل السليم (٦/ ٨٥)، فتح القدير (٣/ ٥٠٤).

(٥) انظر: البسيط للواحدي(١٥/ ٢٠٤)، المحرر الوجيز(٦/ ٢٠١)، مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٦).

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٢١٢)، البسيط للواحدي(١٥/ ٢٠٤)، مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٨٦).

بِثَــوْبٍ ودِينــارٍ وشــاةٍ ودِرهــمٍ فَهَـل هُـوَ مَرفـوعٌ بِـما ههنـا رأسُ[١]

واختاره الفراء[٢].

ويشكل على هذا القول: أنَّ ضمير الفصل لا يتقدم على الخبر، وقد سمي ضمير فصل؛ لأنه يؤتى به للفصل بين ما هو خبر أو نعت، ومن العلماء من يسميه عماداً؛ لاعتماد المتكلم أو السامع عليه في التفريق بين الخبر والنعت[٣].

فكيف يتقدم على الخبر، وإنما أتي به لهذه الفائدة.

وذهب آخرون من أهل العلم إلى أنَّ الآية الكريمة على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير، وأنَّ ﴿هِيَ﴾ كناية عن الأبصار، ثم أظهر الأبصار بياناً عنها، والمعنى: فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

واختار هذا القول الزمخشري والقرطبي والنسفي[٤].

وقدمه الطبري[٥]، وجوزه الفراء كمعنى للآية الكريمة[٦].

وذكروا له شاهداً في اللسان العربي:

لعمـرو أبيهـا لا تقـول ظعينتـي... ألا فـرَّ عنـي مالـك بـن أبي كعـب[٧]

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن (٢/ ٢١٢) ولم ينسبه لأحد، وكذا الطبري في جامع البيان (١٦/ ٤١٠)، ووقع كذلك غير منسوب في شرح التصريح على التوضيح (٢/ ٢٤)، وهمع الهوامع (٣/ ٨٥).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٢١٢)، البسيط للواحدي (١٥/ ٢٠٤)، زاد المسير (٣/ ٢١٣)، الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٨٩)، أنوار التنزيل (٤/ ٦٠).

(٣) انظر: مغني اللبيب (٥/ ٥٥٦)، شرح ابن عقيل (١/ ٣٧٢)، البحر المحيط (٧/ ٤٦٨)، الدر المصون (٨/ ٢٠٤)، اللباب في علوم الكتاب (١٣/ ٦٠٣)، جامع الدروس العربية (١/ ١٢٦).

(٤) انظر: الكشاف (٣/ ١٣٥)، الجامع لأحكام القرآن(١٤/ ٢٨٩)، مدارك التنزيل (٢/ ٤٢١)، وقد ذكر الإمام مكي هذا القول بصيغة التمريض كما في الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٨١٩).

(٥) انظر: جامع البيان (١٦/ ٤١٠).

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ٢١٢).

(٧) ذكره الفراء في معاني القرآن (٢/ ٢١٢) ولم ينسبه لأحد، وكذا الطبري في جامع البيان (١٦/ ٤١٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١٣).

والشاهد: قوله: لعمرو أبيها، كنى عنها، ثم ذكرها وبينها بقوله: ظعينتي.

وهذا القول جارٍ على القواعد التفسيرية، فالمعنى فيه واضح بين، كما أن فيه المحافظة على نسق الآية الكريمة، مع أنَّ قول من قال: إن الضمير ضمير القصة قول قوي، لكن يؤخذ عليه القول بالتقديم والتأخير، فهذان قولان قويان في بيان معنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم.

الموضع العشرون: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥].

قال الإمام البغوي رحمه الله:«﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَرْضَ تَرْتَفِعُ بِالنَّبَاتِ فَذَلِكَ تَحَرُّكُهَا، ﴿وَرَبَتْ﴾أَيِ:ارْتَفَعَتْ وَزَادَتْ، وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَعْنَاهُ: رَبَتْ وَاهْتَزَّتْ »[(١)] .

الدراسة: في هذا الموضع-﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾- من هذه الآية الكريمة حكى الإمام البغوي قولاً بالتقديم والتأخير، لكنه حكاه بصيغة التمريض، ولم ينسبه لعالم معين.

ومن أقدم من قال بهذا مجاهد الإمام المعروف، حيث قال[(٢)]:«﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ يعني: «بالنبات» ﴿وَرَبَتْ﴾ يقول: «ارتفعت قبل أن تنبت».

(١) معالم التنزيل (٥/ ٣٦٧)، وانظر: تفسير السمعاني (٣/ ٤٢٢) ،اللباب في علوم الكتاب (١٤/ ٢٤).
(٢) تفسير مجاهد (ص: ٥٨٦).

ومعنى هذا: أن الأرض اهتزت بحركة النبات، وهذا يقتضي خروج النبات منها، فتكون الجملة القرآنية -بناء على هذا القول- على التقديم والتأخير.

قال الماوردي:«فيكون على قول مجاهد تقديم وتأخير، تقديره: ربت واهتزت»[(١)].

واختار هذا المذهب في فهم الآية الكريمة كل من: يحيى بن سلام وابن أبي زمنين[(٢)].

ويناقش هذا القول بأمرين اثنين، هما:

- أن الآية -على هذا القول- تحمل على المجاز لا على الحقيقة؛ لأنَّ الاهتزاز للنبات وليس للأرض، لكن للعلاقة بينهما نسب الاهتزاز للأرض، ولاشك أن الحمل على الحقيقة أولى.

- القول بالتقديم والتأخير مخالف للأصل، وما كان كذلك، فلا يقبل إلا بدليل يوجب المصير إليه.

وفي الآية قول آخر، وهو أنَّ الآية على نسقها، ويكون معنى ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتۡ﴾ أضعفت النبات بمجيء الغيث.

قال القرطبي: « والاهتزاز: شدة الحركة، يقال: هززت الشيء فاهتز، أي حركته فتحرك.

فالأرض تهتز بالنبات؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية، فسماه اهتزازاً مجازاً.

وقيل: اهتز نباتها، فحذف المضاف، قال المبرد، واهتزازه شدة حركته.

﴿وَرَبَتۡ﴾ أي ارتفعت وزادت.

---

(١) النكت والعيون (٥/ ١٨٤)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣٦٥)، فتح القدير (٤/ ٥٩٤).

(٢) انظر: تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٥٥)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ١٧١).

وقيل: انتفخت، والمعنى واحد، وأصله الزيادة »[1].

قال أبو حيان: « واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها؛ لأجل خروج النبات، ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: زادت وانتفخت »[2].

وهذا مذهب أكثر المفسرين، وعزاه الطبري إلى أهل التأويل، وممن ذهب إليه: مقاتل بن سليمان والطبري والزجاج والثعلبي ومكي والواحدي والزمخشري وابن عطية والرازي والقرطبي والبيضاوي وابن جزي وأبو حيان وابن كثير والمحلي[3].

وهذا القول هو القول الراجح-إن شاء الله تعالى-.

واختار بعض العلماء أنَّ اهتزت بمعنى ربت، وعليه؛ فالآية لا تقديم فيها ولا تأخير.

ومن هؤلاء الواحدي وابن الجوزي[4].

لكن حمل المعاني على التأسيس أولى من حملها على التأكيد، فيظل القول السابق أولى الأقوال وأقواها، والعلم عند الله ﷻ.

الموضع الحادي والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣٦٥).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٨٧).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١١٦)، جامع البيان (١٦/ ٤٦٦)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤١٣)، الكشف والبيان (٧/ ٩)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٨٤٨)، الوجيز للواحدي (ص:٧٢٨)، الكشاف (٣/ ١٤٥)، المحرر الوجيز(٦/ ٢١٧)، مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٠٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٣٢٤)، أنوار التنزيل (٤/ ٦٥)،التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٣)، تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٨)، تفسير الجلالين (ص:٤٣٣).

(٤) انظر: التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٠)، زاد المسير (٣/ ٢٢٤).

قال الإمام البغوي رحمه الله: « ﴿ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ قِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيْ: نَحْيَا وَنَمُوتُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ »[(١)].

الدراسة: ذكر ربنا جل شأنه إنكار الكافرين للبعث والنشور في غير ما آية من كتابه تعالى، وقد حكى سبحانه وتعالى مقولتهم في بعض المواضع، كهذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، ومثلها آية الجاثية: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[الجاثية:٢٤].

والكلام في الآيتين واحد من جهة التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

وقد ذكر البغوي قول من قال: إنَّ الآية على التقديم والتأخير، فيكون المعنى: نحيا ونموت.

لكنه رحمه الله حكاه على صيغة التمريض، ولم يعزه لقائله.

ووجه هذا القول: أنَّ الموت في الآية الكريمة قدم على الحياة مع كونها سابقة له في الوجود، فهي -أعني الحياة- مقدمة عليه في المعنى.

قالوا: وهذه الآية كقوله تعالى:﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ [آل عمران:٤٣].

«والعرب تفعل ذلك في الواو خاصة إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر»[(٢)].

واختار هذا القول السمرقندي[(٣)]، وذكره الطبري احتمالاً، وقدمه السمعاني[(٤)].

ويناقش هذا القول بمخالفته الأصل، ألا وهو عدم التقديم والتأخير.

---

(١) معالم التنزيل (٥/ ٤١٧)، وانظر هذا القول أيضاً في: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٤٣)، مدارك التنزيل(٢/ ٤٦٩)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٧٢)، البحر المحيط (٩/ ٤٢٣)، الجواهر الحسان (٥/ ٢٠٩) ، السراج المنير (٣/ ٥٩٩)، فتح القدير (٥/ ١١).

(٢) قاله الطبري في جامع البيان (٢١/ ٩٥).

(٣) انظر: بحر العلوم (٢/ ٤٨٠).

(٤) انظر: جامع البيان (٢١/ ٩٥)، تفسير السمعاني (٣/ ٤٧٥).

ولما ذكر السمين الحلبي دليلهم، قال: «ولا دليلَ فيها؛ لأنَّ الظاهرَ مِنْ معناها: يموت البعض مِنَّا، ويَحْيا آخرون، وهَلُمَّ جرًّا»[(١)].

واختار آخرون أن الآية على نسقها، فلا تقديم ولا تأخير، ووجه ذكر الموت قبل الحياة، مع تقدم الحياة عليه أن المراد بالموت موت الآباء، والحياة حياة الأبناء؛ «لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتهم أحياء، وذلك نظير قول الناس: ما مات من خلف ابناً مثل فلان، لأنه بحياةِ ذكره به، كأنه حي غير ميت»[(٢)].

وممن قال بهذا القول: مقاتل بن سليمان والطبري والماتريدي والواحدي وابن الجوزي والرازي والبيضاوي وابن جزي وأبو حيان والجلالان وأبو السعود والسعدي[(٣)].

وقدم هذا الوجه الزمخشري[(٤)].

وقريب من هذا القول قول من قال: يموت قوم ويحيا آخرون، وبهذا عبر السعدي وابن عاشور[(٥)].

واختار آخرون: أن المراد بالموت هو كونهم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات.

وحينئذ يكون الموت متقدما على الحياة واقعاً ووجوداً.

---

(١) الدر المصون (٨/ ٣٤٢).

(٢) قاله الطبري في جامع البيان (٢١/ ٩٥).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٦)، جامع البيان (٢١/ ٩٥)، تأويلات أهل السنة (٧/ ٤٦٨)، الوجيز للواحدي (ص: ٧٤٧)، التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٩٠)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (ص: ٢٥٠)، مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٧٦)، أنوار التنزيل (٤/ ٨٧)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٥١)، البحر المحيط (٩/ ٤٢٣)، تفسير الجلالين (ص: ٤٤٩، ٦٣٣)، إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٣).

(٤) انظر: الكشاف (٤/ ٢٩١).

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٥١)، التحرير والتنوير (١٨/ ٥٦).

وقدمه القرطبي[١].

وهذا من أرباب هذا القول محافظة منهم على نسق الآية الكريمة، وإلا فالموت في معناه المعروف مفارقة الروح للجسد، أما ما لم تكن فيه الروح، فلا يقال في حقه ميت، فلا يقال مثلاً للجماد: ميت؛ لأنه لا روح فيه.

وأبدى الرازي وجهاً جديداً -فيما ظنَّ- في بيان سبب تقديم الموت على الحياة عند كلامه على آية الجاثية، وكان ﷺ قد ذهب مذهب الجمهور في آية المؤمنين، وهو في كلا المذهبين يرى أن الآية على نسقها، يقول:

«الرابع: وهو الذي خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة، فقال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ثم قال بعده: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت، وذلك في حق الذين ماتوا، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها، وذلك في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد»[٢].

والحق أن هذا الوجه قد حكاه غير واحد[٣]، فهو مسبوق إليه، بل حكاه الزمخشري وهو أحد المراجع الأصيلة لدى الرازي في تفسيره، بل وجدت الرازي قد حكاه عند تفسيره لآية (المؤمنون)[٤].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٤٣)، وانظر: الكشاف (٤/ ٢٩١)، المحرر الوجيز (٧/ ٦٠١)، مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٨)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٢٧٢)، البحر المحيط (٩/ ٤٢٣)، اللباب في علوم الكتاب (١٧/ ٣٦٦)، روح المعاني (٩/ ٢٣٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) الكشاف (٤/ ٢٩١)، المحرر الوجيز (٧/ ٦٠١).

(٤) مما لا يخفى على باحثٍ الخلافُ في تفسير الرازي وهل أكمله هو؟ أم أكمله غيره؟.

وهذه قضية ما زال الخلاف فيها قائماً بين الباحثين، ولم يقم دليل يفصل في المسألة، فالله أعلم.

وحتى هذا الموضع لا يدل على أن أحد الموضعين ليس من كلام الرازي؛ لاحتمال النسيان من المصنف، أي أنه ذكره في الموضع الأول، فلما جاء إلى الموضع الثاني نسي ما كتب أولاً، وربما لم يكن كتابه عنده حال الكتابة، فكتب ما كتب.

ولعل الراجح أن الآية الكريمة على نسقها لا تقديم ولا تأخير جرياً على الأصل، ثم بعد هذا جائز أن يكون سبب التقديم ما ذكره الجمهور من أنَّ الموت ذكر؛ لأنه للأصول وهم الآباء، ثم ثنى بالحياة للأبناء، فقدم الموت؛ لكونه متعلقاً بالأصل وهو الآباء، أو يكون المراد: أن الموت يصيبنا كما أن الحياة تصيبنا، فيموت قوم ويحيا آخرون، ولا تعارض بين الوجهين. والله تعالى أعلم.

الموضع الثاني والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[النمل:٢٨].

قال البغوي: «﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تَنَحَّ عَنْهُمْ فَكُنْ قَرِيبًا مِنْهُمْ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَرُدُّونَ مِنَ الْجَوَابِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ(١):« فِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، مَجَازُهَا: اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ، أَيْ: انْصَرِفْ إِلَيَّ »(٢).

الدراسة: ذكر الإمام البغوي رحمه الله أن في هذه الآية الكريمة تقديماً وتأخيراً، حيث قدم في الآية ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ على قوله ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ليكون نسق الآية الكريمة: اذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم، فانظر ماذا يرجعون، ثم تولَّ عنهم إلي.

ووجه هذا القول أنَّ سليمان عليه السلام أراد من الهدهد أن يأتي له بخبر الكتاب المرسل إليهم، وهذا يقتضي أن ينظر أولاً بماذا يردون، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ثم يأتي إلى سليمان مخبراً، وهذا ما يدل عليه قوله﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، فالآية على التقديم والتأخير-بناء على هذا القول-.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان (١٨/ ٤٥).

(٢) معالم التنزيل(٦/ ١٥٨)، وانظر هذا القول في: جامع البيان (١٨/ ٤٥)، معاني القرآن للزجاج (٤/ ١١٧)، تأويلات أهل السنة (٨/ ١١٢)، بحر العلوم (٢/ ٥٧٩) الكشف والبيان (٧/ ٢٠٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥٤٠٢)، المحرر الوجيز (٦/ ٥٣٤)، الجامع لأحكام القرآن(٦/ ١٥٠).

وقد قال بهذا ابن زيد، واختاره الأخفش، وبه قال مكي والواحدي[١].

وقد استحسن الزجاج هذا القول، وقال: «وهذا حسن، والتقديم والتأخير كثير في الكلام»[٢].

لكن يشكل على هذا القول أن الأصل عدم التقديم والتأخير.

ولهذا؛ فقد كان مذهب الأكثر من المفسرين أن الآية على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير؛ إعمالاً للأصل.

والمعنى: اذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم، ثم تول عنهم، فكن قريباً منهم، وانظر ماذا يرجعون.

وقال وهب بن منبه: أمْرهُ بالتولي حسنُ أدبٍ؛ ليتنحى، حسبما يتأدب به مع الملوك بمعنى، وكن قريباً حتى ترى مراجعاتهم[٣].

وهذا قول الصحابي ابن عباس[٤].

واختاره الطبري والبغوي والزمخشري وابن عطية والرازي والقرطبي والبيضاوي والنسفي والخازن وأبو حيان والجلال المحلي وأبو السعود والشوكاني والسعدي[٥].

---

(١) انظر: معاني القرآن للأخفش(٢/ ٤٦٦)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥٤٠٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٣٧٦).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١١٧).

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (٦/ ٥٣٤) وأبو حيان في البحر (٨/ ٢٣٣) والثعالبي في الجواهر الحسان (٤/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٧١).

(٥) انظر: جامع البيان (١٨/ ٤٦)، معالم التنزيل(٦/ ١٥٨)، الكشاف (٣/ ٣٦٣)، مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٥٤)، المحرر الوجيز(٦/ ٥٣٤)، الجامع لأحكام القرآن(٦/ ١٥٠)، أنوار التنزيل(٤/ ١٥٩)، مدارك التنزيل (٢/ ٦٠٢)، لباب التأويل (٣/ ٣٤٤)، البحر المحيط (٨/ ٢٣٢)، تفسير الجلالين (ص:٤٩٧)، إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٨٣)، فتح القدير (٤/ ١٥٨)، تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٠٤).

وعلى هذا؛ فالنظر بمعنى التأمل، أي: تأمل واستحضر في ذهنك ماذا يقولون، والمراد ضبط ردهم على الكتاب.

ويحتمل أن يكون بمعنى: الانتظار، أي : انتظر ماذا يرجعون، كما في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد:١٣] [(١)].

لكن المعنى الأول أبين في الدلالة على المقصود، ولذا؛ لما حكى أبو حيان القول الثاني حكاه بصيغة التمريض[(٢)].

وعلى كلٍ، فقول الجمهور من المفسرين في معنى الآية الكريمة، وأنه لا تقديم فيها ولا تأخير أولى بالصواب، لمراعاته اتساق الكلام، كما أنه قول الصحابي ابن عباس، فالأخذ به أولى، قال ابن عطية:«واتساق رتبة الكلام أظهر، أي: ألقه، ثم تول» [(٣)].

قال السمين الحلبي: «ولا حاجةَ إلى هذا[(٤)]؛ لأن المعنى بدونِه صحيحٌ أي: قِفْ قريباً منهم لتنظرَ ماذا يكون »[(٥)].

الموضع الثالث والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾[فاطر:٨].

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥٤٠٢)، البحر المحيط (٨/ ٢٣٣)، الدر المصون (٨/ ٦٠٧)، اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ١٥١).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨/ ٢٣٣).

(٣) المحرر الوجيز (٦/ ٥٣٤).

(٤) يعني دعوى التقديم والتأخير في الآية.

(٥) الدر المصون (٨/ ٦٠٧).

قال البغوي رحمه الله: «وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ: أَفَمَنَّ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَرَآهُ حَسَنًا، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، فَإِنَّ اللهَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»[(١)].

الدراسة:

عند النظر في كلام المفسرين في معنى الآية الكريمة نجدهم قد اختلفوا في معناها على أقوالٍ عدة، وسبب اختلافهم يعود إلى أن الشرط المذكور في الآية وهو ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ لم يذكر جوابه، ومن هنا اختلفت أنظار العلماء في تحديد هذا الجواب.

وقد كان من جملة الأقوال المحكية في هذا الصدد قول الحسين بن الفضل -وقد ذكره الإمام البغوي رحمه الله- حيث رأى رحمه الله أنَّ المعنى على التقديم والتأخير، أي أن قوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ قدم على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ وإلا فحقه التأخير، ليكون نسق الآية الكريمة:

أفمن زين له سوء عمله، فرآه حسناً، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ، فإنَّ الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

وقد ذهب إلى هذا مكي[(٢)]، وجوزه الماتريدي وقدمه[(٣)].

ويؤخذ على هذا القول ادعاء التقديم والتأخير في نسق الكلام، وهذا مخالف للأصل، من غير دليل يدل عليه.

---

(١) معالم التنزيل(٦/ ٤١٣)، وانظر هذا القول في: الكشف والبيان (٨/ ٩٩)، الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٤٨).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٩/ ٥٩٥٤).

(٣) تأويلات أهل السنة (٨/ ٤٧١).

وذهب فريق من أهل التأويل إلى أنَّ الآية ليس فيها تقديم ولا تأخير، ولكنْ فيها تقديرٌ لجواب الشرط، ومحله عقب الشرط، أي عقب قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، ثم اختلفوا في المُقَدَّرِ على قولين اثنين، هما[1]:

أولهما: أنَّ التقدير هو: ذهبت نفسك عليهم حسرات، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، أي: فحسب سيئ ذلك حسناً، ذهبت نفسك عليهم حسرات. وحذف من الكلام: ذهبت نفسك عليهم حسرات، لدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.

قال سيبويه: «وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل»[2].

وقال النحاس: « والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية »[3].

واختار هذا القول سيبويه[4] وابن قتيبة والطبري والنحاس وابن كثير[5].

وهذا القول يلتقي مع قول الحسين بن الفضل في المعنى، لكنه يختلف معه في بيان هذا المعنى، فالحسين يجعله من باب التقديم والتأخير، وهذا القول جعله من باب المحذوف الذي دل عليه الكلام.

---

(١) انظرهما في: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٢٦٤)، تأويلات أهل السنة (٨/ ٤٧١)، معاني القرآن للنحاس (٥/ ٤٣٨)، تفسير ابن فورك (٢/ ١٦٢)، الكشاف (٣/ ٦٠٠)، المحرر الوجيز(٧/ ٢٠٤)، باهر البرهان (٢/ ١١٦٧)، زاد المسير (٣/ ٥٠٦)، الجامع لأحكام القرآن(١٧/ ٣٤٨)، أنوار التنزيل (٤/ ٢٥٤)، مدارك التنزيل(٣/ ٧٨)، لباب التأويل (٣/ ٤٥٣)، البحر المحيط (٩/ ١٥)، حاشيه الشهاب على أنوار التنزيل (٧/ ٢١٦).

(٢) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن (٣/ ٢٤٦)، والشوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٨٩).

(٣) إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٢٤٦).

(٤) نسبه لسيبويه غير واحد، انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٢٤٦)، المحرر الوجيز(٧/ ٢٠٤)، الجامع لأحكام القرآن(١٧/ ٣٤٨).

(٥) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص:١٣٩)، جامع البيان (١٩/ ٣٣٣)، إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٢٤٦)، تفسير ابن كثير(٦/ ٥٣٥) .

وينتقد هذا القول بأنه فصل بين ما فيه الحذف ودليل المحذوف مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه[١].

ثانيهما: أن التقدير كمن آمن بالله وعمل صالحاً لا يستويان.

ليكون المعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن آمن وعمل صالحاً لا يستوون، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

قالوا: وهذا المحذوف دل عليه قوله تعالى:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

وإلى هذا ذهب يحيى بن سلام والسمرقندي وابن أبي زمنين والواحدي والكرماني والرازي والبيضاوي وابن جزي والخازن وأبو حيان والزركشي والجلال المحلي والسيوطي والألوسي[٢].

واستحسنه ابن عطية حيث قال بعد ذكره للوجهين: « وأحسنها ما دل اللفظ بعد عليه »[٣].

قال الشوكاني: «وهذا أولى؛ لموافقته لفظاً ومعنى »[٤].

وقدمه السمعاني وابن الجوزي[٥].

---

(١) أفاده الألوسي في روح المعاني (١١/ ٣٤٣).

(٢) انظر: تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٧٧٨)، بحر العلوم (٣/ ١٠٠)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢٥) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٥٠١)، غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ٩٤٦)، مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٤)، أنوار التنزيل (٤/ ٢٥٤)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٧٢)، لباب التأويل (٣/ ٤٥٣) ، البحر المحيط (٩/ ١٥)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٤٦)، تفسير الجلالين (ص:٥٧٢)، معترك الأقران (٢/ ٤١١)، روح المعاني (١١/ ٣٤٢).

(٣) المحرر الوجيز(٧/ ٢٠٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٣٨٩).

(٥) انظر: تفسير السمعاني (٤/ ٣٤٧)، زاد المسير (٣/ ٥٠٦).

ويؤيد هذا القول أن هذا الجواب جاء مصرحاً به في آية مماثلة لهذه الآية، وهي آية سورة محمد، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٤].

وأيضاً: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩].

ويؤيده أيضاً: أن هذا المعنى دلت عليه الجملة التالية للجواب، وكون الجواب أو ما يدل عليه عقب جملة الشرط أولى.

ولذا، فقد أخذ على القول السابق الفصل بين ما فيه الحذف ودليله.

ويؤيده أيضاً: أن هذا الجواب المقدر جاء ذكره بعد هذا بآيات، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾[فاطر:١٩-٢٢].

ويؤيده أيضاً: الآية السابقة وتعلق هذه الآية بها على هذا المعنى، الأمر الذي ينتج عنه إبطال استقصاء حجج الكافرين، وردها، فإنَّ الله لما بين جزاء الكافرين والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر:٧]، كأنهم قالوا: نحن أهل الإيمان، وكانوا يقولون: نحن أولى بإبراهيم عليه السلام من محمد، فبين الله لهم أنَّ الضلال المبين هو فيمن زين له سوء عمله وقبيح كسبه، فهذا لا يستوي بأهل الإيمان الحقيقين[1].

لذا؛ فالراجح من هذه الأقوال، هو هذا القول، ويكفي من الأدلة أن هذا التقدير جاء في آيات قرآنية أخرى قد سبق ذكرها.

الموضع الرابع والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨].

(١) انظر هذا الدليل في: مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٢٤)، إرشاد العقل السليم (٧/ ١٤٤).

قال الإمام البغوي رحمه الله: « قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[النجم:٨-٩] اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ: قِيلَ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ: ثُمَّ تَدَلَّى فَدَنَا؛ لِأَنَّ التَّدَلِّيَ سَبَبُ الدُّنُوِّ »(١).

الدراسة: اختلف أهل العلم في المعني بالآيات في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم:٨-١٠] على أقوال مذكورة في مظانها من كتب التفسير، غير أن بحثها والإطالة فيها يخرجنا عما نحن فيه من البحث في المقدم والمؤخر، لهذا؛ سنقتصر على موطن البحث فحسب من الآية الكريمة، ألا وهو التقديم والتأخير المذكور فيها، فأقول: هذا الذي حكاه البغوي من التقديم والتأخير في الآية الكريمة؛ ليصبح نسقها ومعناها: ثم تدلى فدنا، قد حكاه الطبري عن أهل التأويل، وحكاه الثعلبي عن أهل المعاني(٢).

وذهب إليه ابن قتيبة والطبري وابن الأنباري والواحدي والزركشي(٣).

وعلى هذا القول تكون الفاء بمعنى الواو.

ووجهه: أن التدلي متقدم في الوجود على الدنو، فالتدلي ينتج عنه الدنو، قال الواحدي: « قرب بعد بعده وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ»(٤).

وقد بين الطبري وغيره لم قُدِّم الدنو على التدلي، مع أنه متأخر عنه حقيقة، قال رحمه الله: « ولكنه حسن تقديم قوله: ﴿دَنَا﴾ إذ كان الدنو يدل على التدلي، والتدلي على

(١) معالم التنزيل (٧/ ٤٠١)، وانظر: النكت والعيون (٥/ ٣٩٣)، تفسير السمعاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) جامع البيان (٢٢/ ١٣)، الكشف والبيان (٩/ ١٣٧).

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن (ص: ١٢٢)، جامع البيان (٢٢/ ١٣)، التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ١٩٣)، النكت والعيون (٥/ ٣٩٣)، الوجيز للواحدي (ص:١٠٣٨)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٦)، البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٩٢).

(٤) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ١٩٣).

الدنو، كما يقال: زارني فلان فأحسن، وأحسن إلي فزارني، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني؛ لأن الإساءة هي الشتم: والشتم هو الإساءة »[(١)].

قال ابن قتيبة: « أي: تدلى فدنا، لأنّه تدلّى للدُّنو، ودنا بالتَّدلي »[(٢)].

بل فسر التدلي بالدنو، قال الراغب: « والتَّدَلِّي: الدّنوّ والاسترسال »[(٣)].

قال الثعلبي: « لأن التدلّي: الدنوّ »[(٤)].

لكن ينتقد هذا القول بأمرين اثنين، هما:

- أنَّ الأصل عدم التقديم والتأخير، فلا يصار إليه إلا بدليل، ولا دليل، ثم المعنى قائم بدونه، فلا حاجة إليه.

- أن الفعل الثاني معطوف على سابقه بالفاء الدالة على التعقيب والترتيب، فدلَّ على أنَّ الثاني بعد الأول، قال المجاشعي[(٥)]: « وهذا لا يجوز في (الفاء)؛ لأنها مُرَتِبة، وليست كالواو، ولا يحتاج ههنا إلى هذا التقدير؛ لأن المعنى بين، والتقدير: ثم دنا وامتد في دنوه »[(٦)].

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ١٣)، وانظر: الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري (ص:١٠٣)، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٦).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص:١٢٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٧).

(٤) الكشف والبيان (٩/ ١٣٧)، وانظر: مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٣٩).

(٥) أبو الحسن علي بن فضال بن علي بن غالب المجاشعي، القيرواني، التميمي، إمام في النحو، والتفسير، طوف الدنيا، وصنف كثيرة، منها (الإكسير في التفسير) في خمسة وثلاثين مجلدا، و (البرهان) في التفسير في عشرين مجلداً، ومؤلفاً في النحو في عدة مجلدات، توفي: سنة تسع وسبعين وأربع مائة.
انظر: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (ص: ٤٣٢)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٢٩)، تاريخ الإسلام (١٠/ ٤٤٣)، لسان الميزان (٦/ ٦).

(٦) النكت في القرآن الكريم (ص: ٤٧٠)، وانظر: إعراب القرآن للنحاس (٤/ ١٨٠)، إعراب القرآن للأصبهاني (ص: ٤٠٧).

وذهب آخرون من أهل العلم إلى أنَّ الآية على نسقها، والمعنى: أنه قرب، وتدلى وزاد في القرب، قال الشوكاني: «﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ أي: قرب من الأرض، فتدلى، فنزل على النبي ﷺ بالوحي »[(١)].

وهذا هو ظاهر قول الحبر البحر ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

واختاره الزجاج والسمرقندي ومكي والسمعاني وابن الجوزي والنسفي وابن جزي والشوكاني[(٣)].

وذكره الماتريدي احتمالاً في معنى الآية الكريمة[(٤)].

وهذا القول هو الراجح-إن شاء الله تعالى- والمعنى بَيَّن واضح لا خفاء فيه ولا غموض، كما أن فيه المحافظة على نسق الكلام.

الموضع الخامس والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[الإنسان:٢].

قال الإمام البغوي:« ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ نَخْتَبِرُهُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، مَجَازُهُ: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا؛ لِنَبْتَلِيَهُ؛ لِأَنَّ الِابْتِلَاءَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الْخِلْقَةِ »[(٥)].

الدراسة:اختلف أهل التفسير في الآية الكريمة المذكورة، هل هي على نسقها، أم فيها تقديم وتأخير؟ وبناء على هذا؛ فأين محل الوقف في الآية الكريمة؟

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٢٧)، وانظر: تفسير السمعاني (٥/ ٢٨٥)، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨١٩).

(٢) أخرجه ابن جرير(٢٢/ ١٤)، وانظر: الدر المنثور(١٤/ ١٤).

(٣) انظر:معاني القرآن وإعرابه للزجاج(٥/ ٧٠)، بحر العلوم (٣/ ٣٥٩)، الهداية إلى بلوغ النهاية (١١/ ٧١٤٦)، تفسير السمعاني (٥/ ٢٨٥)، تذكرة الأريب (ص:٣٧٥)، مدارك التنزيل (٣/ ٣٩٠)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣١٦)، فتح القدير (٥/ ١٢٧).

(٤) تأويلات أهل السنة (٩/ ٤١٨).

(٥) معالم التنزيل (٨/ ٢٩٢)، وانظر: تفسير السمعاني (٦/ ١١٣)،.

ومحل هذا الخلاف هو قوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾، هل هي متعلقة بما قبلها، أم بما بعدها، ويكون المعنى على التقديم والتأخير؟

وسبب خلافهم: أنَّ الله تعالى ذكره ذكر الابتلاء في الآية الكريمة، ثم أعقبه بذكر السمع والبصر، ومعلوم أنَّ الابتلاء يكون بعد اكتمال الخلقة للإنسان.

إذا علم هذا، فاعلم أنَّ أهل العلم اختلفوا في فهم الآية الكريمة على قولين اثنين، هما:

الأول: الآية فيها تقديم وتأخير، ونسقها:

إنا خلقنا الإنسان، وجعلناه سميعاً بصيراً؛ لنبتليه.

فجملة: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ مقدمة، وحقها التأخير.

وعلى هذا يكون الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ ،ثم ابتدأ، فقال: ﴿نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢] [(١)].

«والابتلاء على هذا إنما هو بالإسماع والإبصار، لا بالإيجاب، وليس نَبْتَلِيهِ حالا»[(٢)].

وممن ذهب إلى هذا مقاتل بن سليمان والفراء وابن قتيبة والزجاج والواحدي وابن الجوزي[(٣)].

ووجه هذا القول: أن الابتلاء لا يكون إلا بعد تمام الخلقة.

ويناقش هذا القول بأمرين اثنين، هما:

- أن هذا خلاف الأصل، ولا داعي له.

---

(١) انظر: البسيط للواحدي(٢٣/ ١٥).

(٢) قاله ابن عطية في المحرر الوجيز (٨/ ٤٨٦).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٥٢٣)، معاني القرآن للفراء (٣/ ٢١٤)، غريب القرآن لابن قتيبة (ص:٥٠٢)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٥٧) الوجيز للواحدي (ص: ١١٥٧)، تذكرة الأريب (ص:٤٣١).

- أن الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ تفيد الترتيب.

قال مكي:«وقد رُدَّ عليه[١] هذا التقدير؛ لأن الفاء لا يقع معها التقديم والتأخير. ولأن الكلام تام بغير تقديم وتأخير، فلا يخرج عن ظاهرٍ لغير علة »[٢].

لأجل هذا؛ قال ابن جزي: «وهذا تكلف بعيد »[٣].

وقال أبو حيان:«ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير، والمعنى يصح بخلافه»[٤].

بل إن البيضاوي لم يعرج على هذا القول، ولم يذكره، مع أنه له عناية بذكر الاحتمالات الواردة في الآيات[٥].

- وذهب آخرون إلى أنَّ الآية على نسقها، فلا تقديم فيها ولا تأخير، والمعنى على هذا القول:

- خلقنا الإنسان مبتلين له، مختبرين إياه بالأمر والنهي، ولم يكن خلقنا له عبثا ولعباً.

وعلى هذا؛ فقوله تعالى:﴿نَبْتَلِيهِ﴾ حال متصل بما قبله[٦].

- فهو إذاً، إخبار من مولانا ﷻ أنه خلق الإنسان مبتلياً له، ثمَّ ذكَّره ببعض نعمه عليه، وهي السمع والبصر، وهما من أشرف النعم وأجلها.

---

(١) أي الفراء.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٧٩٠٦)، وانظر: روح المعاني (١٥/ ١٦٩) .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٣٦).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٣٥٩)، الدر المصون (١٠/ ٥٩٤).

(٥) قال الشهاب في حاشيته علي أنوار التنزيل (٨/ ٢٨٦):«وأما كون نبتليه في نية التأخير، أي: فجعلناه سميعا بصيراً نبتليه، فتعسف، ولذا لم يعرج عليه المصنف».

(٦) انظر: البسيط للواحدي(٢٣/ ١٥)، الكشاف (٤/ ٦٦٦)، المحرر الوجيز (٨/ ٤٨٦)، مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٤١)، البحر المحيط (١٠/ ٣٥٩)، الدر المصون (١٠/ ٥٩٤).

- وقد اختار هذا القول جمع من العلماء، بل هو قول الأكثر من المفسرين، منهم:

- ابن جرير والسمرقندي وابن أبي زمنين ومكي والسمعاني والبيضاوي والنسفي وابن جزي وأبو حيان وابن كثير وأبو السعود والألوسي[1].

وهذا القول هو الراجح في معنى الآية الكريمة، قال ابن جرير بعد أن ذكر قول من قال بالتقديم والتأخير:«ولا وجه عندي لما قال يصح، وذلك أنَّ الابتلاء إنما هو بصحة الآلات وسلامة العقل من الآفات، وإن عدم السمع والبصر.

وأما إخباره إيانا أنه جعل لنا أسماعاً وأبصاراً في هذه الآية، فتذكير منه لنا بنعمه، وتنبيه على موضع الشكر؛ فأما الابتلاء، فبالخلق مع صحة الفطرة، وسلامة العقل من الآفة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]»[2]

.

(١) جامع البيان (٢٣/ ٥٣٦)، بحر العلوم (٣/ ٥٢٦)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٥/ ٧٠)، الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٧٩٠٦)، تفسير السمعاني (٦/ ١١٣)، أنوار التنزيل (٥/ ٢٦٩)، مدارك التنزيل (٣/ ٥٧٦)، التسهيل لعلوم التنزيل(٢/ ٤٣٦)، البحر المحيط (١٠/ ٣٥٩)، تفسير ابن كثير(٨/ ٢٨٦)، إرشاد العقل السليم (٩/ ٧٠)، روح المعاني (١٥/ ١٦٩).

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٥٣٦)، وانظر: مفاتيح الغيب (٣٠/ ٧٤١)، روح المعاني (١٥/ ١٦٩).

الخاتمة

في خاتمة بحثي هذا، وبعد حمد الله -جل في علاه- على ما يسر ووفق، وأعان وسدد، أدون أهم النتائج التي ظهرت في أثناء البحث، فمنها:

- أهمية علم المقدم والمؤخر في فهم القرآن الكريم.
- عناية الإمام البغوي في هذا النوع من أنواع علوم القرآن الكريم.
- كانت المواضع التي تم دراستها خمسة وعشرين موضعاً.
- لا يتبنى الإمام البغوي القول به غالباً، رغم نقله لأقوال القائلين بالتقديم والتأخير في الآيات القرآنية.
- أهمية القواعد التفسيرية، وضرورة استحضارها عند نقل أقوال المفسرين، ومناقشتها، وإلا سيختلط الأمر على طالب العلم.
- من أبرز القواعد في التفسير: قاعدة: الأصل في الكلام أنه على نسقه ونظمه، فلا تقديم ولا تأخير، وعليه؛ فمن ادعى التقديم والتأخير في آية قرآنية طولب بالبينة.
- لاحظت عناية العلماء بهذه القاعدة، وتحاكمهم إليها، وهذا لا يعني أن هذه القاعدة هي الأم في علم التفسير، ولكنها الأم في علم المقدم والمؤخر، ومن البديهي أن تبرز في هذا النوع، وتظهر في هذا الفن.
- من أبرز العلماء الذين يستعملون القاعدة السالفة أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط)، فهو مكثر من استعمالها وتطبيقها.
- أكثر الآيات التي ادعي فيها التقديم والتأخير، كان هذا مجرد ادعاء عارٍ عن الصحة والبينة.

هذه أبرز النقاط التي يمكن تدوينها كنتائج خلصت إلى ذهن الباحث، والله الموفق أن يلهمنا الصواب، ويرزقنا السداد، ويجنبنا الخطل في القول والعمل، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١. **الإتقان في علوم القرآن**، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، السعودية، ط:الأولى.

٢. **أحكام القرآن لابن العربي**، محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان.

٣. **أحكام القرآن للجصاص**، أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٤٠٥هـ .

٤. **أحكام القرآن للشافعي**، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٤٠٠هـ.

٥. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، إشراف الشيخ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد.

٦. **باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن**، محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوري الغزنوي، أبو القاسم، الشهير بـ (بيان الحق)، ت: سعاد بنت صالح، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٧. **البحر المحيط** ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية– لبنان/ بيروت–١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، ط: الأولى، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون.

٨. **البحر المحيط في أصول الفقه**، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت، ط الأولى ،١٤٢١هـ.

٩. **بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية**، جمعه يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، ط الأولى،١٤٢٧هـ.

١٠. **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ،ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١١. **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي الحنبلي، تحقيق : د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد، – السعودية / الرياض، ط الأولى ، – ١٤٢١هـ.

١٢. **التحرير والتنوير**، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٨٨٤ .

١٣. **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري**، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ط الأولى، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة،الرياض،١٤١٤هـ.

١٤. **التسهيل لعلوم التنزيل**، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٥. **تفسير أبي السعود**، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦. **تفسير البغوي**، معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حقق أحاديثه: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط الرابعة ،١٤١٧هـ.

١٧. **تفسير البيضاوي**، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي دار الفكر، بيروت.

١٨. **تفسير الجلالين**، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، ط الأولى.

١٩. **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٢٠. **تفسير الرازي**، مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢١هـ، ط الأولى.

٢١. **تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم**، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، تحقيق د.محمود مطرجي، دار الفكر،بيروت.

٢٢. **تفسير القاسمي**، تأليف العلامة محمد جمال الدين القاسمي، أشرف على تصحيحه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط الأولى،١٣٧٦هـ.

٢٣. **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، للإمام محمد رشيد رضا، دار المنار، ط الثانية، ١٣٦٦هـ .

٢٤. **تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين**، تحقيق أبي عبد الله حسين عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، الناشر الفاروق الحديثة، القاهرة، ط الأولى،١٤٢٣هـ.

٢٥. **تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي المعروف بابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب،المكتبة العصرية، صيدا.
٢٦. **تفسير القرآن العظيم**، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ.
٢٧. **تفسير القرآن للسمعاني**، أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض،السعودية،١٤١٨هـ ، ط الأولى.
٢٨. **تفسير القرآن للصنعاني**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ، ط الأولى.
٢٩. **تفسير القرآن**، اختصار النكت للماوردي، تأليف الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم،بيروت، ١٤١٦هـ، ط الأولى.
٣٠. **تفسير النسفي**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، ت:مروان محمد الشعار، دار النفائس ـ بيروت ٢٠٠٥.
٣١. **تفسير غريب القرآن**، للإمام محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار مكتب الهلال، بيروت، ط الأولى، ١٤١٤هـ، مراجعة الشيخ إبراهيم محمد رمضان.
٣٢. **تفسير مقاتل بن سليمان الأزدي**، تحقيق أحمد فريد دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢٤هـ، ط الأولى.
٣٣. **الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، صالح عبد السميع الآبي الأزهري، المكتبة الثقافية، بيروت.
٣٤. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق د. عبد الله التركي، مركز هجر للبحوث، القاهرة، ط الأولى. ١٤٢٢هـ.
٣٥. **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق:د.عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط الأولى،١٤٢٧هـ.
٣٦. **حاشية الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي النجدي ط: الثانية، ١٤١٦هـ.
٣٧. **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، دار صادر، بيروت.

٣٨. **حاشية شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي**، مكتبة الحقيقة، ١٩٩٨م. تركيا.
٣٩. **حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي**، مكتبة الحقيقة، تركيا،١٤١٩هـ.
٤٠. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي، ت: محمد نبيل طريفي/ اميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٨م.
٤١. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق د.أحمد الخراط،دار القلم، دمشق.
٤٢. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، تحقيق د. عبد الله التركي،مركز هجر للبحوث، القاهرة، ط الأولى.
٤٣. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت: محمود محمد شاكر،مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٤٤. **رد البهتان عن إعراب آيات من القرآن الكريم**، د. يوسف بن خلف العيساوي، ابن الجوزي، ط الأولى، ١٤٣١هـ.
٤٥. **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ، ط الثالثة.
٤٦. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط السابعة والعشرون ، ١٤١٥هـ.
٤٧. **زهرة التفاسير**، لأبي زهرة، دار الفكر العربي، بدون سنة طبع.
٤٨. **شرح أبيات سيبويه**، يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، ت: الدكتور محمد علي الريح هاشم، راجعه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ١٣٩٤هـ .
٤٩. **شرح الأزهرية**، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، المطبعة الكبرى ببولاق، القاهرة.
٥٠. **شرح العقيدة السفارينية**، محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن، ط الأولى، ١٤٢٦ .
٥١. **الشرح الكبير**، سيدي أحمد الدردير أبو البركات، تحقيق : محمد عليش،دار الفكر، بيروت.

٥٢. **شرح الكوكب المنير المسمى**، محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، تحقيق: د. محمد الزحيلي، د. نزيه حماد، جامعة أم القرى، ط الثانية،١٤١٣ هـ.
٥٣. **شرح فتح القدير**، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي،دار الفكر، بيروت، ط الثانية.
٥٤. **شرح منتهى الإرادات**، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، عالم الكتب، بيروت، ط الثانية،١٩٩٦م.
٥٥. **الصفدية**، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية،ت: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.
٥٦. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر، بيروت.
٥٧. **كشاف القناع عن متن الإقناع** ، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: هلال مصيلحي ومصطفى هلال، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٥٨. **لسان الميزان**، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني،ت: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط: الأولى، ٢٠٠٢ م.
٥٩. **المبدع في شرح المقنع**، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي،المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠هـ.
٦٠. **مجاز القرآن**، صنفه، أبو عبيدة معمر بن المثنى، مؤسسة الرسالة،بيروت ، ١٤٠١هـ.
٦١. **المجالسة وجواهر العلم**، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي تحقيق د.محمد فؤاد سزكين، دار ابن حزم، لبنان/ بيروت، ١٤٢٣هـ، ط الأولى.
٦٢. **معاني القرآن الكريم**، لأبي جعفر النحاس، تحقيق، محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ، ط الأولى.
٦٣. **معاني القرآن**،للإمام أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ.
٦٤. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ابن هشام الأنصاري، ت: د. عبد اللطيف الخطيب . بدون سنة ط، بدون ط.
٦٥. **المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور**، إِبْرَاهِيْمُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الأَزْهَرِ بنِ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ العِرَاقِيُّ، الصَّرِيْفِيْنِيُّ، الحَنْبَلِيُّ ، ت: خالد حيدر، دار الفكر للطباعة ، سنة النشر ١٤١٤هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	١٥١
المقدمة	١٥٢
الموضع الأول: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[البقرة:٦٥]	١٥٨
الموضع الثاني: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[البقرة:٦٦]	١٥٩
الموضع الثالث: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾الآية: [البقرة:٨٥]	١٦٣
الموضع الرابع: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة:١٣٠]	١٦٥
الموضع الخامس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦]	١٦٧
الموضع السادس: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾[البقرة:٢٥٩]	١٧١
الموضع السابع:التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٧٣]	١٧٥
الموضع الثامن: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء:١٤٧]	١٧٧
الموضع التاسع: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾[المائدة:٦٩]	١٨١
الموضع العاشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة:١١٨]	١٨٨

الموضع الحادي عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[الأعراف:١١] ١٩٦

الموضع الثاني عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:٧٩] ٢٠٤

الموضع الثالث عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾[الأعراف:١٦٠] ٢٠٧

الموضع الرابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[الرعد:٣٨] ٢١١

الموضع الخامس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧] ٢١٤

الموضع السادس عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[الكهف:٣٨] ٢١٦

الموضع السابع عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[الأنبياء:٣] ٢١٨

الموضع الثامن عشر: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٣]. ٢٢٣

الموضع التاسع عشر: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الأنبياء:٩٧] ٢٢٤

الموضع العشرون: التقديم والتأخير في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] ٢٢٨

الموضع الحادي والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[المؤمنون:٣٧] ٢٣٠

الموضع الثاني والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[النمل:٢٨] ٢٣٤

الموضع الثالث والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾[فاطر:٨] ٢٣٦

الموضع الرابع والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم:٨] ٢٤٠

الموضع الخامس والعشرون: التقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾[الإنسان:٢] ٢٤٣

الخاتمة ٢٤٧

فهرس المصادر والمراجع ٢٤٩

فهرس الموضوعات ٢٥٤